أبكر قليلًا من الموت

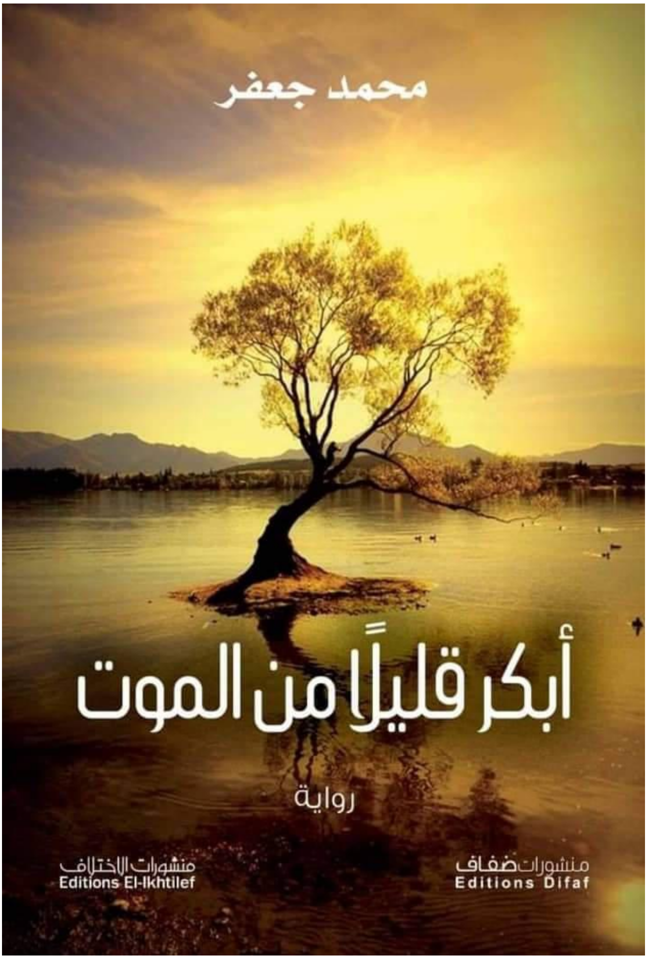

أبكر قليلًا من الموت

رواية

محمد جعفر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1443 هـ – 2022 م

ردمك 978-614-02-4530-3

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

تنويه

استعنت في روايتي "أبكر قليلا من الموت" ببعض المفاصل التي هي من صلب حياة فنان المنمنمات الأشهر محمد راسم، دون أن يعني ذلك أني كنت بصدد كتابة سيرته؛ كذلك الحال ينسحب على باقي الشخصيات الثقافية والفنية المعروفة، من أمثال باية، الحاج محفوظ محي الدين، محمد خدة، جان سيناك، الطاهر جاووت، أحمد طالب الإبراهيمي وآخرين، فوجودهم رغم واقعيته ما هو إلا مجرد اختلاق وخيال صرف.

محمد جعفر

"حاصل الكلام، إنه العمر!"

ياسوناري كاواباتا - الجميلات النائمات

الرسالة
الأولى

لكن هل كان يعالج انتظارا ما؟ ثم لماذا عنّت على باله تلك الذكرى دون سواها؟

تمر الواقعة والتي جاوز حدوثها الخمسين عاما أمامه كفيلم قصير، صامت وبلا ألوان، مضبوط على تثبيت الصورة وإرجاعها؛ ويستمر محدقا بها، فتبدو على قصرها وكأنها موغلة، تمتد إلى الأبد.

ها هو يقف خارج المحطة ينتظر عربة تقوده إلى حيث من المفترض أن يسكن. وقد وصل إلى باريس في صباح يوم سبت بارد وممطر، قادما إليها بواسطة القطار من مرسيليا التي بلغها عبر رحلة بحرية جاءت به من الجزائر حيث يقيم. وفي بهو المحطة وجد بانتظاره من سيتكفل بدور الدليل، وليس هذا الشخص سوى الناشر الفني مسيو بيازا، والذي استدعاه خصيصا ليزين له اثني عشر مجلدا ضخما لكتاب ألف ليلة وليلة يستعد لإطلاقه باللغة الفرنسية، كما أصر على اصطحابه إلى الشقة التي تدبرها له في شارع سانت ميشيل وسط المدينة. والعجيب أن المسيو بيازا لا أثر له في الصورة التي راح يستعيدها راسم، فهو يظهر مقصيا منها ومنفيا كون صاحبها لا يرى فيها غير

نفسه، وغير الحقيبة المثقلة بالثياب وبلوازم اعتقد أنه سيظل بحاجة إليها، تقبض عليها يده اليسرى، ولا تُفلتها، كذلك، وحوله، لا أثر للناس ولا للغطهم وفوضاهم، فكأن العالم أُفرغ منهم في لحظة.

ثم ماذا غير الانتظار، ومشاعر الرهبة والتوجس والتي تبثها فيه الذكرى؟

لعله انتابته بعض الدهشة، واعتراه الكثير من التوتر أيضا، وهي ردود فعل يمكن أن يحصل عليها كل من وطأ عالما جديدا يكتشفه للمرة الأولى؛ وأما الإحساس بالضياع، والذي بالعادة يعتري المغامرين وشذّاذ الآفاق والمرتحلين الباحثين عن فرص لم تكن في متناولهم حيث وُجدوا، فإنه لم يلم به، وعلى العكس من ذلك ظل لديه ما يمنحه ثقة كبيرة بالنفس، ثقة لا تخضع مع ذلك لسن محددة، ويمكن أن تلمسها عند من هم دونه في العمر، فيما يمكن أن يفقدها غيرهم ممن بلغوا سنا أكبر بكثير. وربما يعزى ذلك لاسمه، وهو اسم رغم حداثة سنه قد سبقه إلى باريس وغيرها من البلدان والعواصم الأوروبية، ليتردد في الوسط الفني باعتباره اسما لأحد الموهوبين في فن المنمنمات. وإن لم يكن الشاب مشهورا بعدُ، فإن ما حققه يعِدُ بمعجزات لم يسبقه إليها أحد، وباريس مدينة مخولة لتمنحه الفرصة بلا ريب، وأما ما حصل لاحقا فلم يكن أبدا ضربة حظ، وإن ادعى على مدى العمر كله أنه كذلك.

ولعل لهذه الذكرى الأثر البالغ في نفسه، لهذا تراها تترسخ لديه. تسود وتطغى، وتلوح كما لو أنها الحد الفاصل بين رجلين، حياتين،

عالمين، كونين.. ويبدو أن لا شيء تحقق لراسم قبلها أو أن كل ما ناله، من المفترض، جاء بعدها. فهي الفيصل في مصير لم يحظ به إلا قلّة، وكثير من المبدعين يضيعون في زحمة الحياة ومن دون أن يلتفت إليهم أحد، لكن شاء حظه أن يجعله من هؤلاء القلّة. ويبدو أنه لم يكن ليتمنى أكثر مما حصل معه، على الأقل في تلك السنوات الأولى التي قضاها في باريس، أين ارتبط اسمه لأوّل مرّة بعالم الفن، وصار واحدا من الفنانين الذين يُشار إليهم بالبنان.

كانت تلك أولى الصور التي داهمته بعدما استفاق من البنج، ثم ظلت حاضرة معه للأيام الثلاثة التالية التي قضاها في المستشفى حيث لا يزال يرقد منتظرا تقرير المستشفى وتصريحه له بإمكانية المغادرة والعودة إلى البيت، ليبدأ بعدها فترة نقاهة طويلة لأجل التعافي والشفاء، اختصرها طبيبه المشرف على حالته في شكل توصيات مباشرة، أو وهو ينصت لزوجته كارين تُعلن عن بعضها أمامه، ولا بد أن الطبيب نفسه من أحاطها بها كتعليمات؛ وأما ما حصل معه فإنما جاء نتيجة بذل مجهود خارق وغير معتاد. هكذا أُخطِرَ. ولا بد أن للأمر علاقة بالإرهاق الذي صاحب رحلته الأخيرة، وقد توافق سفره إلى مدينة لندن مع أعياد ميلاد المسيح واحتفالات رأس السنة الجديدة، كما دُعي إليها بمناسبة معرض للفن الإسلامي، حضره بوصفه واحدا من كبار فناني المنمنمات في العالم قاطبة، وهو لم يكن ليرفض دعوة مدينة له فيها شجن وذكريات، مدينة سبق وزارها كفتى لم يتعد السابعة عشرة من عمره في بعثة خاصة عرّج خلالها على متاحفها واطلع على ما تزخر

به من مخطوطات وخزفيات ومنمنمات عربية ولوحات، ما منحه فرصة نادرة للتعرف عن قرب على كل تلك الكنوز، ولا يزال يذكر كيف وقف منبهرا أمام رسومات يحيى الواسطي التي زينت كتاب مقامات الحريري، وأعمال كمال الدين بهزاد، والتبريزي، وغيرهم من الفنانين المحفوظة أعمالهم هناك.

في حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً داهمته النوبة، وقبل ذلك أمضى أمسيته – كما يفعل عادة – مع الأصدقاء في مقهى الفنانين بمحاذاة أوبرا الجزائر يتشكى من لوحاته العالقة في المطار، ولما عاد إلى البيت غيَّر ثيابه، وروّح عن نفسه بمتابعة الأخبار على التلفزيون. وبعد العشاء شعر بالإرهاق فقرر أن يخلد إلى النوم. حينها فاجأه ألم مباغت أشبه بوخز في القلب، أعقبه تشنج واختناق حاد، وأما ما حصل تاليا فلا يذكره.

اكتشف عقب استعادته وعيه أنه في قسم أمراض القلب بمستشفى مصطفى باشا، وإلى جانبه كانت حقيبة سفره نفسها التي صحبته في رحلة لندن، حقيبة لم تسنح له الفرصة ولتكاسله بأن يفرغها، وقد أُضيف إليها أكبر قدر من الغيارات الداخلية. وأما زوجته فأصرت على نقله إلى فرنسا، وفضّلتها على الجزائر للعلاج، لكن الطبيب الذي استقبل حالته لم يمهلها، وأكد لها أن قلبه لن يحتمل أي تأخير، وحذرها فوجدت نفسها تُذعن دون رغبة منها. وهكذا جُهزت غرفة العمليات، فإذا بالجراحة تنجح؛ فهل كان يأمل أكثر من ذلك!

يتماثل للشفاء، ويتعجل أن يستعيد معه أعصابه، فيقدر على ضبط نفسه بلا جزع ودون أن ترتسم ملامح المرض والضعف على محياه،

فيثير قلق زوجته السعيدة بعودته إلى الحياة. ولا بد أنها لم تتخلص من أثار الصدمة بعدما فاجأها مرضه وسقوطه.

لم يداهمه من الراحة إلا بعضها، وظل هناك الكثير من الوهن عالقا، ومعه هواجس تغشاه من فرط المحنة التي وجد نفسه رهنا لها، تحاول نبشه بمخالبها كلما اعتقد أنه تجاوزها. يصمد أمامها ويُغالبها ومتى توقع أنه تجاوزها يجدها تعود تُناكفه في إصرار لعين. ومن هولها أخذ يشعر بالمرارة تتسرب إليه. مرارة تُغرقه في حزن مضاعف يُذكيه وجوده في المستشفى وارتهانه للمرض، وكان يمكنه أن يستسلم للبهجة بعد نجاح عملية دقيقة خضع لها في آخر لحظة، ويتنعم بالسلامة لتجاوزه محنة كادت تضع حدا لحياته، لولا أنه ذو طبيعة متشائمة.

لطالما عاش كذلك، لا يحسن الشعور بالفرح، وهو إذا ما حاول أن يتذكر بعضا منه، فإنه سيدرك أنه وفي أكثر اللحظات التي توجبه لم يكن سعيدا، أو بمعنى أدق لم يعرف كيف يطلق العنان لفرحه، وينتهي به الظرف إلى مراكمته، وفي أحسن الأحوال يختزله في ابتسامة واهنة، ولِم لا يستدعي حينها كل اللحظات البالغة السوء التي مرَّ بها، فكأنه - هذا الحزن - يرسب في أعمق أعماقه، ولا يلبث أن يسحبه إليه كما يفعل الطوق الحديدي وهو يلف رسغ سجين يحاول الانطلاق بعيدا عما يشده، معلنا بهذا أنه مجرد فاشل كبير.

مع ذلك، ألم يُبالغ في حزنه، ويُفرط في شعوره بالتعاسة؟ فعقب نجاح العملية ها هو يعرف بعض التحسن، وإن لا تزال آلام الجراحة والتقطيب تُسيطر عليه، بالإضافة إلى ارتهانه للوهن كنتيجة طبيعية

للمعركة التي خاضها جسده الثمانيني في غرفة العمليات.

ولأنه لا يسعه مساعدة نفسه، تقضي زوجته كارين جل الوقت المسموح به معه في الغرفة. وكانت ترافقه هذه المرّة عندما قامت إلى النافذة، تسحب ستارها. وعلى أثر ذلك اندفع ضوء النهار نافذا في تصميم، فأسعدته حركتها، إذ منحته الإحساس بأنه في غمرة يوم جديد، وما لبث أن انفصل عن الذكرى إلى ما يعتقد أنه شديد الصلة به. وفي خضم الحاضر الذي عاد فسيطر على أجوائه بانت الذكرى مجرد اقتطاع هين من ماض يصعب الاستدلال عليه الآن. إنها جزء انتفى، ومن المستحيل إثباته ما لم يخضع للتوثيق، ولم تتضمنه أي صورة حية أو حوار أو تسجيل.

إن حياته، وبحكم الفن الذي عاش لأجله، ظلت تشع بكثير من الضوء وتنعم بالوهج. وما فتئ يُنظَر إليه عبر لوحاته، ومن خلال تلك المحطات التي سجّل حضوره فيها، كما أنه موجود أيضا في تلك الصور التي التقطت له هنا وهناك، ومن خلال تصاريح أو أحاديث أدلى بها في مواقف متباينة أو ضمن حوارات رُتِبت له أو وفق آراء جمعها وقدّمها ناقدون وباحثون مختصون يعمدون بالإضافة إلى ذلك إلى إسقاط رسوماته ولوحاته على حياته الشخصية، معتبرين أنها تُعبّر عن لحظة فارقة أو أخرى مارقة مرّ بها، متجاهلين أن الإبداع في غالبه ما هو إلا لحظة احتدام لا تخضع إلا لظروفها الشاذة جدا، ومن المحال أن يضبطها أي إيقاع عام، حتى إنه هو نفسه يمكنه أن يكون قد أغفل ونسي الأسباب والدوافع التي أوجدت لوحاته، لتصير والحالة هذه

مجرد فكرة عابرة يُجسِّد من خلالها رؤيته للفن. ويكاد يجزم، وعن خبرة، أنها ستظل مريضة بالعطب، خرساء، حتى ولو استُنطقت؛ أو هذا ما ينتهي إليه الحال أمام جهود المحللين والنقاد القاصرة عن فهم لوحاته وعوالمه يخوضون فيها كما شاؤوا، وهو صامت أمامهم. لكن ما الذي يسعه أن يقوله هو الذي لطالما اتسم بالخجل وعزف عن مخالطة الناس وكشف أغوار نفسه الدفينة للدخلاء؟ لنصير في هذه الحالة وكأننا أمام معادلة الداخل الخارج، الظاهر الباطن، الجسد الروح، النور الظلام... مثنوية لا يفيد إدراكها في شيء، ما دامت تستعصي على كل تفسير.

سَألَ:

- متى نعود إلى البيت؟

وردت كارين في جزم:

- ليس قبل يومين آخرين.

وحاول أن ينتفض جزعا، متصرفا كولد صغير لم يتعلم بعد كيف يرضخ للأمر الواقع:

- لم أعد أحتمل وجودي على هذا السرير. لم أعد أحتمل رائحة المستشفى والأدوية.

لكنه لقي عنادا من قبلها، وإن حاولت بشكل ما أن تشد من أزره.

- لا يسعك الاستهزاء بصحتك، ثم إني لا أفهم كيف تحاول أن تبدو أمامي لا مباليا!.. إن هذا يشعرني بالرعب، وأنت لا تدري ما سبّبه لي مرضك ودخولك إلى المستشفى. وبقدر ما

خشيتُ عليك، وجدتُ نفسي وحيدة، وكم كان ذلك مخيفا وصعبا. عليك أن تعي مدى خطورة الوضع، وتفهم أنه لا يمكننا أن نخضع بعد اليوم إلى أهوائنا، والمخاطر ستظل قائمة ما لم نتقيد بالعلاج!

واضح أنها لا تريد أن تُصدق شفاءه. تخشى على وجدانها أن يُنتهك ثانية، وتخاف أن تتربص بها مشاعر جرّبتها ليس قبل مدّة طويلة، مشاعر ملؤها الخوف والسقوط في المجهول. هكذا تجد نفسها عالقة معه في غرفته بالمستشفى، تلوكها أحاسيس متضاربة، فلا تعرف مثله، ورغم نجاح العملية، كيف تنتصر للفرح.

وما لبثت أن اقتربت منه، حتى إنها اقتعدت جانب السرير. وتقبّلها إلى جانبه، وبرغم شعور الحاجة، بلا مشاعر كبيرة. وإن سعى لأن يغذي هذه المشاعر بالانشغال بها وإشاعة الطمأنينة لديها؛ وأما هي فاسترسلت تمده بمزيد من العاطفة، تأثرا لمرضه، ولاعتقادها أنه بحاجة إليها. وحين لمست يده واحتضنتها استشعر دفئا غامرا، واستعاد زمنا قديما طاله غبار النسيان والإهمال، وحاول بموازاته أن يستمتع بإحساس الشفاء.

لم يعد بوسعه فعل الكثير، كما أن ما فاته لا يمكن تعويضه. ويكتفي بأن يتأملها بمحبة، ويُكبر فيها ابتسامتها ما دامت تُضيء داخله وتمنحه سببا للسعادة. سعادة زائلة، وإن من المفروض أن يسير كل شيء إلى الزوال، وهو نفسه كان من الممكن أن يسكن العدم في هذه الأثناء، لكن يظهر أنه لا يزال في العمر بقية، وعليه أن يهنأ بما لديه، وإن لم يعرف كيف!

تحضر الممرضة، ولا يمكن لصوتها أن يأتي إلا دفعة واحدة، جشا، صارما، وإنه لا يكاد يتجاوز جملة قصيرة في كل الأحوال، فكأن صاحبته معنية بأن تُحيّد مشاعرها، حتى لا تنجرّ إلى ترضيات هي في غنى عنها، ولعل هذا جزء من وظيفتها.

تقول:

- في الخارج من يرغب في الاطمئنان على صحتك.

ويهتف راسم متفاجئا ومرتبكا:

- آه، امنعيهم من الدخول بأي طريقة. على الأقل ليس الآن!

فهل يكون لظهورها ونبرتها والجهامة التي هي طابع مميز فيها، وقد انتقلت إليه كعدوى، أثر في رده؟

يشعر كما لو أنه تسرّع. ويبدو مضطرا لأن يبرر، لكن أيضا يصمت حين يكتشف أنه لا يملك ما يعلل به موقفه.

وفي حضرتها يكتفي بتبادل النظر وزوجته كارين، ثم لا يلبث يلاحق حركاتها وهي تُغيّر الأمصال وتُبدِّل الشراشف وتُرتبها بعناية قبل أن تلقمه حبات الدواء.

إنه كما لو كان في حضرة ممرضة عجوز. وعلى أثر ذلك يستذكر الطبيب، فتتجلى له سنه التي غفل عنها، ويتساءل في فزع جلي، ماذا كان سيحصل لو ارتعشت يده الهرمة أثناء العملية؟ ثم هناك زوجته كارين نفسها، عجوز أخرى تضاهيه في العمر، ولا يمكن اعتبارها إلا انعكاسا لماضيه الموغل في القدم، وصورة كاملة عنه، وإحصاءً دقيقا ورهيبا لكل ما حصل له فيه. وإنه رغم تعاطفه الكبير معها لا يسعه أن

ينظر عبر عينيها غير ذلك الماضي، وأما المستقبل، فلم يعد يدري من أي جهة يشرق!

ويأسى على نفسه، وهو يرى نفسه محاطا بالعواجيز، ويقبع وسط عالم من رجال ونساء انتهت صلاحيتهم. رجال ونساء يشبهونه، يتمسكون بالحياة وترقيع وجودهم الهش فيها. استُنفِدوا لكنهم لا يزالون هنا يناورون. وإن ذلك يورطه في مزيد من العجز، وأكثر من ذلك يُشعره بدنو الأجل، دنوا يؤكد عليه مرضه ووهن قلبه.

ماذا لو يغمض عينيه الآن!.. ينام، فتختفي كل هذه البشاعة من أمامه. وسيكون سعيدا أيضا لو استطاع أن يحلم. وما إن تخرج الممرضة حتى ينقل ملاحظته إلى كارين زوجته.

يعلن في حذر:

- إنها، ورغم سنها الفتية، تبدو عجوزا!

وكأنها لم تفهم مغزى كلماته!.. ويسمعها تسأله في تندر لم يعتده على لسانها:

- ولكن ماذا ستفعل بمحيط شاب؟ وبماذا ستنفعك ممرضة شابة؟ إنك لن تستطيع أن تُثبت شيئا، كما أني أقف على خيبتك في الفراش منذ سنوات طويلة!

في شبابه كثيرا ما أغوته النساء. وفي حضرتهن لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه، وكثيرا ما يتحوّل إلى أرعن يرتكب الحماقات. ولأنه ما فتئ يصادفهن في شوارع ومقاهي باريس ظل يصحبهن إلى أحلامه وعالم من الخيال. بعد شهرته عاد مطاردا وكثيرات حاولن

تصيده. وقع في أسر بعضهن، وغالبا برضاه. بعد عودته واستقراره بالجزائر تقلصت مساحة الحرية لديه، لكنه راح يستعيدها خلال أسفاره والدعوات إلى المعارض عبر العالم. وما أخذ يناله حينها، كان يعتبره حقه الموعود به، هكذا يخوض فيه باعتباره استراحة محارب، ويستغله لتعبئة أنفاس جديدة، معتقدا أن أمامه الوقت كله ليعود إلى طبيعته الأولى والتي يصبح فيها أشبه بنبي أو قديس.

إنه أبدا ليس كارها للحياة، ولقد ظل يأمل فيها وبما يعتقد أنه في انتظاره، وخلال ذلك لم ينتبه إلى العمر الذي راح ينقضي على غفلة من الجميع، حتى إنه يقف الآن دهشا، ويسأل، هل لا يزال أمامي من متسع؟

يتلفت حوله، كمن يرغب في اللحاق بشيء لا يمكن تعويضه، ثم يدرك أنه وفي هذه السن عليه ألا يُعوّل كثيرا. وإذا ما بقي هناك شيء يجب أن يتطلع إليه، فألا تخذله قواه، فتسير به إلى النهاية، وإلا فإنه سيعيش عاطلا وعالة، وسيقف مشلولا مشدوها يتأمل فيما هو حوله-كما الآن-في جزع وقنوط.

يتضاعف شعوره بالوحشة، وبثقل الحجز والعجز. يطلب أوراقا وقلما. سيكاتب صديقه جاكوب..

إلى جاكوب ستيرن
الجزائر- مستشفى مصطفى باشا

14، جانفي، 1975

"عزيزي جاكوب، راسلتك قبل نحو شهر على أمل أن ننجح في ترتيب لقاء لنا في لندن على هامش معرض شاركت فيه هناك. شعرت بالحاجة إلى رؤيتك، ورغبت في أن نلتقي ونثرثر كما كنا نفعل في الماضي. نلعن العالم، نُعرِّيه ونواجهه ببذاءاتنا؛ وتوقعت أن رسالتك تأخرت في البريد كما يحدث عادة، لكن أن يستمر ذلك لأكثر من شهر فهذا ما يجعلني أقلق وبشدة، ولهذا أسألك، هل أنت بخير؟

ها أنا أخبرك بأني أصِبت بوعكة طارئة نُقلت على أثرها إلى المستشفى حيث أرقد الآن. لقد عدت بدوري منهكا من سفرتي الأخيرة، وكنت مهددا بالموت، إلا إني ما أزال حيّا. لا داعي للقلق، فبعد إجرائي عملية على القلب أراني أتماثل للشفاء، كما إني تجاوزت مرحلة الخطر بأشواط، وإلا كيف يمكنني أن أكتب إليك!

ها أنا أجدها فرصة لأختبر ما أملكه من جهد، ولأقف على مدى معافاتي، ما دمت لا أعرف إذا ما ستسعفني قدرتي وستواتيني الكلمات؛ ثم إنه لا عزاء لي غير الكتابة أعالج بها وحدتي، وصداقتك أتدفأ بها من

وحشة تغزو القلب وتفطره، تضاعفها برودة العالم في الخارج حيث المطر والريح في عنفوانهما، بعدما عاد قلب الشتاء المظلم، فاستحكم بالجو.

مجبر أخوك لا بطل، ما دام مقيدا إلى سرير المرض، ومقصيا في مستشفى موحشة، وبعيدا كل البعد عن الأشياء التي اعتادها وتعلق بها. وإني في وضعي هذا كمن لا يملك ما يفعله، ولولا الأصوات التي تنعب في داخلي، لأجزمت أني ميت وأسكن داخل قبر.

كل ما يحيطني يدفعني إلى الوهن، خصوصا بعدما تضطر كارين إلى مغادرة المستشفى. حينها أنزلق باتجاه وحدة خانقة لا أعرف كيف أقاومها، وإن أجتهد في أن أروِّح عن نفسي بالاستعانة براديو ترانزيستور يبثني أخبار العالم أو الموسيقى التي أحبها. أدوِّر في الموجات، وأستمع إلى ما أشاء حذِرا وخِفية، فلن تقبل الممرضة التي تراقبني بقلب عجوز أن يعلو صوته لما فيه من إزعاج للمرضى الآخرين، كما لن يعجبها أن أبقى بدوري صاحيا متى حان موعد نوم الجميع.

لا أعرف لمَ أجدها جهمة دائما، هذه الممرضة. وهي تبدأ عملها كما لو أن هناك ما يُغيظها، وإن استطعت أن أكسر بالحيلة تلك الصرامة التي تُبديها ولا أجد لها من داع. وما لم يكن مسموحا به في حضرة كارين، اعتبرتُه مسموحا به في غيابها، وقد عرفت قبل البارحة اسمها، وجزءاً من تفاصيل حياتها.

لم تسع زينب لأن تجمِّل واقعها، كما لم ترد أن تجعله أسود. كذلك لم تكن ثرثارة، وقد راحت تحكي لي بنبرة محايدة وغير مثقلة

بالعاطفة جانبا من حياتها، ومنها عرفت أنها تخطو نحو الخامسة والثلاثين، كما أنها زوجة شهيد، ومن عائلة بسيطة مكافحة. وقد اضطرت إلى العمل لإعالة ولديها وأسرتها التي تقيم معهم. وفي كل الأحوال لا يمكنك أن تتوه عنها، فهي ليست إلا موديلا عرف كيف يعيه ويفهمه ويجسده في لوحاته الصديق العبقري محمد إسياخم.

لديها هموم بكل تأكيد لكنها لا تسمح بأن تشي بها ملامحها، وهي تعرف من أكون، وربما تُقدّرني لذلك، وإلا لما سمحت لي بهذا الانتهاك الصغير لخصوصيتها.

حين سألتها:

- لماذا لا تتزوجين؟

هتفت:

- لا أحد يرغب في امرأة لديها أبناء.
- حتى بالنسبة لزوجة شهيد؟
- بل خصوصا إذا كانت زوجة شهيد.

وعندما أكدتُ لها أنها يمكنها أن تجد رجلا يحبها، وجمت، قبل أن تقول:

- لا يعجبني الرجال المنفلتون.

على كل حال لم أتصور أنها تقصدني. وواضح أنها أمعنت تتهرب من الجواب بطريقتها. وفي اللقاء اللاحق أخذت تتصرف كما لو أنه لم يحصل بيننا شيء. نفس الجهامة التي تميزها مع مزيد من الصرامة والانضباط. وأنا نفسي احترمت رغبتها فلم أباشر حديثا جديدا معها.

لا أحب أن أظهر ثقيلا أو فضا، وأمنحها سببا تكرهني لأجله.

لماذا أخبرك بقصتها؟.. لا أعلم. ربما لأن أمامي ليلة طويلة أخرى لا أعرف كيف أصرفها، وأنا متى استسلمت لها إلا وشبَّ حريق داخلي.

إني أحترق، ولا أفهم كيف باستطاعة ذاكرتي أن تفعل بي كل هذا. وكأنها ضُبطت على زر الاسترجاع، فهي لا تفتأ تُعيد علي الحياة التي سبق وعشتها. هكذا أراها معنية بأن تُذكرني بكل لحظة منها، لكن بنحو مختلف وبإيقاع يعود إلي بمزيد من النكد والكدر والحزن، وأخشى ما أخشاه أن تسير بي في النهاية نحو حتفي!

كذلك الغيم الذي يسكن داخلي، فإنه لا يريد أن يفرغ حمولته ويمطر. إنه يخنقني. كما يتربص بي الحزن كلما أُطفِئت الأضواء وأَغمضتُ عيني رغبة في راحة لا تريد أن تأتي. ورغم التحذيرات أُبقي المصباح الساهر مضيئا وعيني مفتوحتين، فأنا كلما أغمضتهما رأيت هذا الماضي يعبر أمامي في شكل صور وذكريات، وكلما فتحتهما وحدقت أمامي في الفراغ تلاشت الصور وانطفأت، ولا أدري إلى أي حد يسعني البقاء على هذا الحال، ممعنا في الفراغ نفسه رغم ما في ذلك من إجهاد وألم.

أقاوم، وحين تخبو إرادتي أناور على طريقتي. أستدرج الذاكرة ونزفها باتجاه قصص أريدها هذه المرة. أستعيدها على مهل، وأحاول أن أنتشي بها ما استطعت. حينها تعود باريس. تلوح من جديد، فأتساءل، ماذا بقي اليوم من هذه المدينة الهرمة غير صدفة لقائنا؟

وحدها ما تعن على بالي الآن وتنضح بالمعنى، ووحدها تُنقذني من شعور واخز بالوحدة وتوحي لي بالطمأنينة.

هل تذكر كيف حصل وتصادقنا؟

التقينا أول مرة في بار فرنسيس بشارع لافاييت حيث اعتدتَ أنت العزف على آلة الساكسو، هوايتك المفضلة. وليلتها عرّفنا على بعضنا الصديق جورجي، والذي كان يشتغل صحفيا في جريدة الوقت الواسعة الانتشار، إذا لم تخني الذاكرة، ومن حينها لم نفترق.

تعن على بالي أيضا أشآ. فهل تذكر أشآ؟ فتاة مديدة، يغشى وجهها نمش لطيف ومحبب، تعرفتُ عليها في حفلة أقمتها أنت في شقتك، وصديقتك ليزلي هي من اصطحبتها معها، ولا أظنك تنسى هذه الأخيرة لما كابدته بسببها! ثم إني أسأل نفسي الآن هل تكون حقا تعافيتَ من لسعتها العقرب؟.. وأما أشآ فقد ظهرت خجولة، واختارت أن تنزوي رفقة كأس من النبيذ في طرف الصالون، وبالكاد شاركتنا صخب الاحتفال أو شاهدناها ترقص.

سألتُكَ عنها، وعمن تكون، فهتفت، هل تروقك؟ ثم دفعتني في خبث باتجاهها، ولعل ذلك حصل بتحريض من ليزلي أيضا. ولم أصدق أنا أنه يمكن لخجولين اثنين مثلنا الحديث والتواطؤ فيما بينهما. وما حصل في شقتك التي أفرغتها لأجلنا في اليوم التالي لا يمكن نسيانه. فقد بقينا تحت الشراشف اليوم بطوله، وإنه إثم لا يغتفر. هكذا ظللنا نراه، وإن أقبلنا عليه في نشوة جذلى يكاد يخنقها الحذر، إذ لا مناص.

لا أنسى كذلك تلك الكذبة الكبرى التي تواطأتَ فيها معي وأنت تُفسر لكارين سبب غيابي عنها اليوم بأكمله، فقد أخبرتها أنني اضطررت للمبيت عندك بعد أخذ وشدّ حصل معنا، تبعه عراك في أحد البارات. حدث ذلك بعد أن لمّحتْ لغيابي غير المبرر والمفهوم، وتوقعتَ أنها ستلومك بقسوة لأنك لم توجّه لها دعوة بدورها إلى حفلتك، ولا يفوتك أن ذلك كان شَرطا ملزما مني أنا حتى أقبل بالحضور.

آه، لو اكتشفت ما كنا نفعله في شقتك، لكرهتك حينها وكرهتني!.. لكن أنّى لها أن تعلم، ثم إن ذلك حدث في الماضي البعيد، وعليها أن تغفر لي الآن، خصوصا وأن علاقتي بها في ذلك الوقت لم تتجاوز التعارف البسيط، لكن اهتمامها المبالغ بي هو ما سحبني باتجاهها وورطني بها ورطة قادتني إلى الزواج منها، وأنا لا أُنكر سعادتي بها، ووحدها هي اليوم، وفي محنتي، من يقف إلى جانبي.

لكن ماذا لو توطدت علاقتي بأشآ؟ ماذا لو أني لم أهجرها؟ أعتقد أني لم أفهم تلك المرأة أبدا، ولربما خفتها لأنني لم أفهمها، كما هجرتها للسبب عينه.

لقد طلبت مني أن أرسمها عارية بكل ما فيها من فتنة مستعرة. وتحاملتَ علي أنت لما أخبرتك بطلبها، ورحت تصب الزيت على النار بقولك، عليك أن تفعل، فهذا ما تريده كل أنثى!.. ورغم أني توقعت أن تكون مازحا، إلا أني لم أستطع تجاوز حرجي. هكذا وجدت نفسي واقعا في مصيدة.

ما استغربته حينها أن تكون تلك هي فكرة أشآ عما أقوم به أنا كفن، وأخشى أنها راحت تعتقد أني مثل إيغون تشيلي وبابلو بيكاسو وموديلياني أو هكذا هو حال كل الفنانين، غير مستوعبة أنني لم أملك يوما جرأتهم، ناهيك عن طبيعة اهتماماتي، وما أتطلع إليه عبر الفن. ولم أعرف إذا كان منوطا بي أن أخبرها أني قادم من جغرافيا مختلفة لا يمكنها أن ترى في العري أكثر من سوءة يجب أن تُدارى. ولأن فكرة الموديلات باتت سُنّة دارجة في تلك الأوقات حاولت أن أجد الأعذار لها، مع ذلك فإني لم أستطع أن أستوعب أن تصير تلك رغبة فتاة يوم اكتشفتها لاحظت أنها لا تعرف كيف تداري خجلها. وخشيت أن هناك ما يفوتني بعدما شممت رائحة لا أحبها. ولا أكتمك أني خفتها منذ لحظتها، وليس عجيبا أن أتحاشاها في اللاحق من الأيام، كما أني لم أسع لتكذيب ما ادعته صديقتك في حقي لما اتهمتني علانية بالجبن، ما دامت تعتقد أن الجبناء وحدهم يهربون من صديقاتهم بعدما يسرقون منهن أعز ما يملكنه. لقد ظهرت ليزلي قاسية ومتحاملة، ومع ذلك فهي نفسها هجرتك وفرّت إلى نِيس مع أحد أصدقائك الفنانين، فقط لأجل أن يسمح لها بالغناء في فرقته الجديدة، والعجيب أنها سعت لذلك يحدوها الطموح والأمل، وقد فاتها في غمرة النشوة وما يعقبها من توهم أنه ليس متاحا لها أن تنجح، ما دامت لا تتوفر على أي دعامة أو موهبة.

ها أنا أضجرك بقصة لعينة أخرى، بحكاياتي التي قد لا تعني لك الكثير. مع ذلك لا أريد حين يأتيني الموت أن يجدني غضا مفرغا من

الحكايا كمن لم يعش، ثم ماذا سأروي للموتى أولئك الذين سبقوني إلى الحتف؟ بماذا سأعالج وحدتي في تلك الظلمة الأبدية؟ وكيف يمكنني حتى أن أحتملها؟

لطالما حصلتُ في الماضي على ما يمكنني أن أتسلى به، هذا قبل أن يُطوقني الضجر، والذي بسببه لم يعد متاحا لي الآن غير طرح الأسئلة العتيدة نفسها تحت طائلة الضغط والإكراه، وأخشى ما أخشاه أن الأسئلة التي لم أولها يوما الأهمية القصوى سأضطر إلى مواجهتها ومجابهتها في هذه السن الحرجة وأنا أعاني من وطأة المرض والعبوس.

إني لا أفتأ أسأل نفسي، وأؤكد لك أن ذلك يحصل من فرط شعوري بالتهديد ورغما عني، هل عشنا كل هذا العمر لأجل هذه اللحظة المفرغة من المعنى؟ وفي هذه الحالة، ما جدوى كل الذي كان، وما جدوى أي شيء؟.. وكأننا كنا مولعين بالسراب نحسبه ماءً!.. وكأننا كنا نحيا في عالم من الظلال ليس إلا!.. وكأننا لم نكن! هكذا نغدو فارغين ومحبطين، وبلا أثقال غير أوهام صدّقناها، وتمسكنا بها بيأس شديد لا نريد أن نفلتها!

ثم لماذا علي أن أستيقظ الآن؟ وكم سيكون ذلك ضروريا؟ وغير ذلك، ما الذي أخشى ضياعه، وما الذي يبقى لي لأنقذه؟ ألم يفت أوان كل شيء؟ أي لعبة أريدها كتسلية أمتهن بها عجزي؟ أم أنا بصدد التحضير لورطة كبيرة دون أن أعي؟ وهل حقا يهم ذلك متى حصل؟ وهل حقا يهم أي شيء؟

ما زلت خاسرا أبديا. لم أفز يوما، ولا يهمني أن أفوز الآن وفي الوقت الضائع، أنا المتخم بحياة فارغة، والمفرغ مني بحيث لا أراني مهما حاولت. وأما أولئك الذين يشيرون إلى لوحاتي، مدعين أني أسكنها وأنهم يرونني فيها، فلا أظنني أبالي بهدرهم. لقد قرفت من هؤلاء الحمقى والذين يغفلون عن الأصل، ويتعلقون بالمرآة وهي تعكسني، ولا أفهم كيف يسعهم معاملتي بكل هذا الغلو واللامبالاة، حتى إنهم ظلوا يدفعونني بلؤم وإكراه نحو عزلتي. مع ذلك سأعترف أني في فترة ما من شبابي كنت مدينا لهم بإعجابهم بلوحاتي، وأني لطالما حييت بفضل ذلك الانبهار الذي بقيت أراه يتجسد على ملامحهم وهم يقفون أمامها، فقد كنت أكسب وجودي من رغبتهم في الإشهار لاسمي كفنان موهوب وخارق؛ ثم لماذا أحاول أن أتنكر لهم بعد انقضاء العمر، وأنكر وجودي الذي تحقق بفضلهم؟

ربما يحدث هذا لأني أعتقد أنهم لم يفهموني أبدا، وهم يصرون على النظر إلي عبر لوحاتي. لقد ظلوا يعتقدون أن تلك الرسومات تشير إلي، تمثلني، لكنها لم تكن في يوم من الأيام أنا، والنظر إليها على أنها كذلك يؤدي إلى سوء فهم فظيع ومعضلة كبيرة.

ليفعلوا ذلك اليوم وقبل فوات الأوان، ليمعنوا النظر إلي، وإلى هشاشتي المفرطة، وليحاولوا متى اقتربوا مني، أنا الإنسان، أن يلووا بأعناقهم بعيدا عنها؛ وإلا فإني سأظل راغبا وعازفا عنهم.

هل تعلم أني ناولتهم فرصتهم، فرصة جديدة؟ إن كثيرا منهم يتراصون هذه الأيام داخل أروقة المستشفى، ويقبعون خلف باب

غرفتي، منتظرين فرصة يطمئنون من خلالها على صحتي. ومنهم من لم يذكرني منذ أحلت على المعاش، وبعضهم كالمسؤولين النافذين لا يُمثل لهم التقرب مني إلا الفرصة في الظهور إلى جانب نجم وخطف صورة معه قبل أن يُغيبه الموت، صورة تؤكد أني لم أتعرض للإهمال على أيديهم، كما يريد غيرهم الفوز بسبق ما يُفيدهم في موضع ما، أو أن يختلسوا فرصة يكونون فيها إلى جواري، ليعلنوا خلالها ومن دون حياء عن رغبتهم في استشارة أو توصية أو واسطة يعتقدون أني أحوز مفاتيحها.

أكره عبارات المواساة، وملامح التعاطف، ولا أعرف كيف أتعامل معها، كما أني أجد جلها مفتعلا، وإلا بربك أخبرني أين كان كل هؤلاء قبل اليوم؟.. ثم إني لا أريدهم أن يسرقوا مني عزلتي أيضا، عزلة تعلمت كيف أتصالح معها برغم ما فيها من آلام ومعاناة. **البحر ولا هوما**، والغرق أفضل ألف مرّة من صحبتهم ونكدها. وسأبقى أعاند مصرا على رفضهم، عدا أولئك الذين عرفتهم وعرفوني عن قرب. حلقة صغيرة تكفيني وتزيد، حتى لا أخوض في مجاملات وترضيات أمقتها بطبعي، فما بالك بالوضع الحرج الذي أنا تحت رحمته الآن.

لستُ غير لوحاتي، ولقد عشت قانعا بهكذا صفقة وأعتبرها عادلة؛ فما الذي تبدل حتى أرفض اليوم ما قبلت به البارحة؟ ولعلها بعض الهستريا جراء ما أتعرض إليه من ضغط، حتى إني، ولا أخفيك ذلك، قد فكرت بحرق رسوماتي. أن أقيم وليمة للنار من كل تلك الأعمال التي تبقت لي في حماقة كبيرة، وأرقص كرجل تائه على احتدامها

وإيقاعها والتوحش الذي يسكنني. هكذا سأتخلص منهم أولئك الـذين لا ينظرون إلي إلا عبر مرآة تكسرني قبل أن تعكسني.

لا أرغب في أن أكون خاضعا لقانونهم وسلطانهم. أود أن أكـون مـا أريده، وما أريده ليس عظيما أبدا ولا كثيرا علي. فأنْ أشبه الجميع ليس أبدا مزية، ومقابل ذلك يمكنني أن أتخلى لهـم عـن الخلـود، عـن كـوني واحـدا متعـددا، ووَاحـدا لا يشـبهني. أحـد خالـد لـدى أولئـك الـذين سيستمرون بعدي، وإن كنت لا أفهم ما معنى الخلود لشخص لا يعـود له من وجود، ولا يسعه بأي حال مـن الأحـوال أن يشـاركهم مشـاعرهم حـين ينظـرون إلـى لوحاتـه المعلقـة في متـاحف العـالم والمتنـاثرة هنـا وهناك، ولا يقرأ ما توحي به عيونهم وهي تنظر إلى ما يعتبرونه إلهاما!.. ميت في جوف قبر، حي لـدى الأحيـاء، معادلـة يستعصـي علـي هضـمها حتى ولو ابتلعت معها كل الأدوية المعالجة والميسرة للهضم.

مأسـاة أم ملهـاة هـو وجـودي، ثـم هـذه الحيـاة؟ ثـم ألا أكـون متى فكرت على هذا النحو كمن يريد أن يمنح لوجوده معنى، ويصـبغ علـى الحياة ما يجزم بأصابعه العشرة أنها تفتقد إليه؟

أحـاول أن أفلـت مـن قبضـة هـذا البـؤس. أتخـبط كـديك مـذبوح. اللعنة!..

صحيح أني لم أمت، لكني واثق أيضا أن شيئا ما انزلق مني ليستقر هناك خلفي وأنا في غرفة العمليات أعاني بين الموت والحياة. وما أشعر بـه اليـوم يـدب في وجـداني شـيء مختلـف يُفقـدني ضـعفي وتركيـزي في استكناه معناه أو ماهيته. أحـاول أن أتعـرف عليـه مـع ذلـك، وأمـد يـدي

لألامسه، لكني أكون كمن يضعها على زجاج مُغبش، مضبب، فأضطر إلى تجليته. وكلما تمكنت من فتح فسحة أنظر عبرها إلا ويداهمني أمل غريب لم أعهده، يدفع نحوي ببعض الارتياح، وإن أظل أخشى أن أستسلم له في إفراط مخافة أن يتحول إلى خازوق أُصلب عليه. وها أنا أتصنع العزم، وأنوي إذا ما غادرت المستشفى أن أبدأ حياة جديدة مختلفة. وأفهم أنه علي أن أحاول، لكن دون إصرار زائد، حتى لا أضطر إلى دفع تكلفة باهظة أخرى لم يعد قلبي الضعيف يتحملها.

ثم لأخبرك بسر صغير اكتشفته للتو. أنا لا أعتقد أن المرء يبقى نفسه بعد كل محنة. إنها تغيره، وهذا ما يحصل معي أيضا. لم أتحوّل إلى كائن خرافي كما تحكي الأساطير، ولم أتبدّل إلى حيوان يثير الجزع، ولا إلى صبارة منهكة من فرط العطش. فما زلت أحمل اسمي وشكلي وذات سعتي وحجمي، ولا يمكنني حتى أن أثير تشكك من عرفني من قبل، وكارين نفسها لا يمكنها أن تلمس ما أسميه أنا تغيرا، كما لا يمكنها أن تبتئس هي السعيدة بسلامتي وبعودتي إلى الحياة. وأنا متأكد أنها إذا ما لاحظت علي ما قد يثير استغرابها، فستعزوه إلى المرض والوهن، تفعل ذلك في وثوق بعدما خبرتني أكثر من خمسين عاما.

في هذه السن المتقدمة لا يمكن التعويل على إنجاز كبير، ومع ذلك ها أنا أمتلئ بزهو عجيب، قد يلامس بعض الغرور، حتى إني لا أفهم كيف تسرب إلى رجل عاش طول حياته يركن إلى الظل ويخشى الأضواء!.. أي منطق فاسد يمكنه أن يشرح لي حالتي المتعسرة الآن؟

وهل بدأت أول ما بدأت بكسر إيقاع الرضا الذي صاحبني عمري كله؟.. الرضا الذي لا يمكنه أن يكون أكثر من غفلة استطالت، فإذا هي وهم كبير بحجم المجرة استمر معي حتى اللحظة الفارقة، كما يمكنه أن يستمر معي إلى الأبد!

أكاد أنتهي من فرط التعب والإنهاك، وربما علي أن أتوقف هنا. غير قادر على الكتابة لك بإسهاب كما عوّدتك، ويجب أن أستسلم. أن أحاول النوم قليلا حتى لا أموت غدا، وأبكر مما هو مُقدر لي.

دمت رفيقا في وحدتي

صديقك المخلص محمد راسم"

الرسالة
الثانية

الأسبوع الأخير من شهر جانفي. الشتاء يمارس سطوته ويبدو مستحكما، وفي الجو برودة عليلة يحاول راسم مقاومتها بالمونطو يرتديه فوق المنامة القطنية. يلبس أيضا جوربين، فيما يدس رجليه في خف منزلي، ويلف حول رقبته وشاحا يبقيه دافئا.

قبل قليل تخلت الشمس عن الشرفة، وإن ظل المكان محتفظا بحرارتها. وفي مساحة الظل التي خلّفتها كان هناك كرسي من الخيزران بمسند للذراعين استسلم إليه كما اعتاد أن يفعل. صار ذلك ديدنه منذ خروجه من المستشفى، أن يجلس في شرفة شقته يتأمل الوقت وانقضاءه. وعادة ما يحصل ذلك معه على فترتين، بعد العاشرة من كل صباح، ثم مساءً قبل المغيب بقليل.

لا زال يحتفظ بشقته الأولى في حي الأبيار بأعالي العاصمة. شقة لا تزال آثار فخامتها بادية للعيان، تضم أربع غرف اعتبرها كافية جدا، واستطاع أن يحوّل إحداها إلى محترف صغير يرسم فيه، وهناك دأب أن يقضي أغلب ساعات يومه، هذا قبل أن يضطر إلى تغيير عاداته. وما إن جلس هذه المرّة في الشرفة حتى جسَّ بناظريه الفضاء من حوله،

فشملت نظرته الشارع في الاتجاهين.

بالكاد هناك بعض الحركة. إنه يوم أحد، وهو يوم عطلة أيضا، ويشبه في هدوئه لوحات الفنان الفيكتوري جون جريشمو، وأما في باقي الأيام الأخرى فيزدحم الشارع عادة ويكتظ بالمارة وبالسيارات وباللغط الذي تثيره المحال والإدارات والمدارس، وبالاختناق الناجم عن كل هذا الاحتدام والصخب، حتى إنه لا يمكن تشبيهه إلا بلوحة التقاء للفنان جاكسون بولوك، إذ يصير مجرد فوضى مدهشة. ولم يجد هناك ما يلفت النظر، فعاد إلى جريدته التي بين يديه، يفتحها ويقلِّب فيها.

تأخر عن عادته في الخروج إلى الشرفة لبعض الوقت. لم يُتح له ذلك إلا بعدما تخلص من ضيوف عادوه في البيت. ضيوف لم يجد سبيلا إلى الانفلات منهم، وقد ظل يستقبل، وعلى مدى أسبوع كامل، مسؤولين وفنانين وجيران وحتى طلبة ممن درّسهم في معهد الفنون لا زالوا يحتفظون بذكراه؛ وأما هو فتعسر عليه تذكر الكثيرين، مع ذلك اضطر إلى أن يرحب بالجميع بمحبة مثقلة بقنوط عرف كيف يتستر عليه.

كان عليهم أن يُعِينوه على مرضه، فإذا بهم يزيدون من بلواه. وما دام أنهم لا يراعون مواعيد ثابتة خلال الزيارة، أخذوا يُقبلون عليه، ويطرقون بابه كل حين ودون انقطاع منذ سمعوا بإجرائه عملية على القلب، وعرفوا أنه في بيته يتابع العلاج. وما إن تخرج جماعة من عنده حتى يحل مكانهم آخرون. ولأنه كائن يميل إلى العزلة تضاعف قنوطه

وترسخ؛ ولولا الخادمة التي التزمت بالبيت لا تبرحه معلنة عن تضامنها، ومكلفة نفسها القيام بالأعباء المترتبة عن هذه الزيارات جميعها لما استطاع أن يجاري لا هو ولا زوجته هذا العبث ويتحملانه.

والمدهش أن عايشة الخادمة أبدت رضا منقطع النظير، وما تجشمته على عاتقها لم يكن لأجل دراهم إضافية، بل لشعورها بأنها جزء غير هيّن من هذا البيت، ولأنها اعتبرت نفسها أحد دعائمه. وكانت تضطر إلى التغيب كل صباح باكرا، فتعرّج سريعا على مسكنها لتطمئن على زوجها والأولاد ثم تعود. ولقد خدمتهم لسبع سنوات كاملة، ورغم أنها جاوزت الخمسين إلا أنها لا تفكر في تركهم، مرددة، خيركم سابق.

ولم يكن المرض يزعج راسم، لكن راح يقلقه الارتهان إلى العطالة والفراش. ولأنه لم يعتد المكوث اليوم بطوله في البيت، ظل ذلك يخنقه ويفقده توازنه أكثر من المرض نفسه. كذلك، ولأنه لا يُسمح له بمغادرة المنزل، فقد عاد خروجه إلى البلكون بمثابة التعويض. ليس سخيا ولا كافيا، لكنه يحرره ويسمح له بفرد جناحيه؛ ولما يصير الطقس رديئا، مطر أو ريح، فيشعر بأنه معاقب. ينفخ كثيرا ويستاء، وأما لسعة البرد فيدعي أنه باستطاعته تحملها. يكفيه أن يتدثر جيدا، والمهم أن يتخلص من إحساسه بالاختناق والحجز.

والتزم بشقته لا يبرحها. ومن دون تسلية أو شعور بأنك تملك زمام نفسك، يثقل عليك الإحساس بالحبس. ولم يكن يُضاعف من محنته إلا تأجيل مشاريعه كلها. وقد أجبر على التخلي عن عادته في

الجلوس إلى المقهى مساء كل يوم، كما لم يعد باستطاعته المشي، وترضية رجليه، ولقاء الأصدقاء، زمرة صغيرة لكنها تكفيه وتوحي له بالرضا؛ وحتى جرائده غدت تبتاعها له كارين أو الخادمة. وفي صورته الجديدة صار مُكلِفا للجميع.

بعد هنيهة أحضرت له زوجته صينية القهوة، صينية موفورة تعلمت كيف تُتقن إعدادها كأهل البلد. وعلى الرغم من أنه اعتاد الحذر إذا ما تعلق الأمر بصحته، وتوقف لأجلها عن الشرب والتدخين، إلا إنه لم يستطع أن يهجر القهوة، إذ ماذا تساوي الحياة دون متع باقية؟ واقتضى الاتفاق الذي عقده مع كارين أن يواصل شربها، لكن مخففة عِوض تلك المعتقة التي اعتادها. ومن الإبريق الفخاري المزخرف بخطوط وتعاريج زرقاء ووردية أفرغت له فنجانا منها، وبدل الانتشاء مع أول رشفة داهمه شعور بالامتعاض، فزم شفتيه إلى الدرجة التي بان فيها مقطبا، وتغضنت ملامحه وتحوّلت إلى ما يشبه ورقة صفراء مدعوكة.

مدَّ يده إلى قطعة كعك صغيرة هي عبارة عن حلوى الطابع، تكفل الجيران بإحضارها مع حلويات أخرى بمناسبة شفائه وخروجه من المستشفى، فقضم منها. ومن خلال المزيج الذي تشكل لاحقا في فمه أمكنه أن يتقبل المذاق السيئ للقهوة، وأما الرشفات التالية فكان مضطرا لأجلها أن يبدأ بالكعك، يتسلى بمذاقه في فمه حتى إذا شعر بذوبانه شرب من قهوته ما يسعه احتماله.

ما أسخف ما تورطنا به الشيخوخة. في الغرب يسعون لسن قانون يسمح لهم بوضع حد لحياتهم متى شعروا أنها تبدلت إلى جحيم، وأنهم

فيها مجرد كلاب منهكة، مع ذلك عليه أن يعترف أنه وحتى في السن المتقدمة يحتاج الأمر معه إلى كثير من الشجاعة. وتصور أنه لو وجدها يوما، تلك الشجاعة، لكانت حياته أكثر احتداما وعنادا وأقل تأنيبا للضمير. ولعله لا يحوز حتى على بعضها اليوم، فلماذا تراوده مثل هذه الأفكار؟

إنه يلقى المزيد من المشقة، والحياة نفسها صارت مجرد عبء ثقيل، وما ظل يعتقد أنه مقاومة، تكشف فإذا هو مجرد هروب إلى الأمام. هروب مغلف بالجبن، وأما الشدّة الذي لطالما أبداها فلم تكن إلا إدعاء أجوف.

لطالما اعتقد أنه خالد. عاش هذا الشعور منذ شبابه الأول، ثم جاء النجاح ليعمق هذا الشعور، وما كان يهمه أن تخلد ذكراه حين يطوى تحت التراب، والوجود نفسه لا يمكنه أن يعني أكثر من قدرتنا نحن في التأثير على الآخرين؛ وأما الآن فيداهمه شعور بالزوال والانتفاء. لن تصمد الفلسفة أمام الواقع، وعليه ألا يراهن عليها. ويبدو مستسلما، وقد أذكى هذه المشاعر خوف استولى عليه كما الطوق. ومحال أن يعرف كيف يتنصل منه بعدما اقتحمه عنوة ولازمه، ولن يبرحه حتى ولو عادت به الحياة إلى الخلف.

لعل هذه الأفكار من أعراض فترة النقاهة. وها هو يخوض فيها في كل حين لا يدري كيف. يكشط بأظافره فتوقه في كل مرّة، ليحظى بنزف جديد. ورغم الشفاء وإحساسه بأنه يبلي جيدا، يدرك أنه لم يبق له الكثير. عام، عامان، أو بضع سنين يسيرة على أكثر تقدير ثم يحضره الموت اللعين.

في حركة مباغتة، وفي شرفة شقة مقابلة انطلق طائر، اجتذب نظره، فلمحه يحلق بعيدا. وعقب ذلك اكتشف قرقعة حادة مصاحبة تدب في الشرفة نفسها. هناك من يريد فتح بابها ويلقى مشقة. وأخيرا أطل رأس شابة، لم تلبث أن اندفعت خارجا. ورآها تتقدم حافية القدمين حتى المشبك الحديدي في خطوتين عملاقتين، قبل أن تتسمر مكانها. وأخذت تسحب أنفاسا سريعة من سيجارة ظهر أنها تحتفظ بها في يدها اليمنى، غير عابئة بنسمة الغروب الباردة والتي أعلنت عن نفسها قبل الأوان فاضحة شتاءً لا يبدو أنه سيغادر قريبا. وسريعا ما فازت بتعاطفه.

إنها، ولا بد، ساكن جديد. يوحي مظهرها بالأناقة، في حين أن ملامحها أقرب إلى ملامح الأوروبيين، فهل تكون فرنسية؟

يكتشفها، فإذا هي ممشوقة القامة. بشرتها بيضاء مع شعر أشقر يصل إلى مستوى الكتفين. وكانت من دون زينة، وترتدي سالوبيت غامقة مع قميص أبيض. وفيما هي تُقلّب النظر حولها بلا اكتراث، أجزم أنها لا يمكنها أن تشبه أولئك الذين أخذوا يغزون المدينة مؤخرا. قد يخدعه المظهر، لكن حتى إذا ما ظهر أنها ابنة البلد فإن روحها لا بد مختلفة؛ ثم إنها أجمل بكثير حتى من أي فرنسية وقع نظره عليها. وأصر أن ينظر إليها نظرته إلى ملاك، أو أنها فينوس نفسها بعدما فرّت من لوحة ولادة فينوس للرسام ساندرو بوتيتشيلي، لتمثل أمامه.

كم يبلغ سنها؟

لا يستطيع الجزم. وتبدو دون الثلاثين، وغالبا هي في نحو السابعة والعشرين. يُقدّر ذلك في زهو مبالغ فيه. يتأمل أيضا سنه، ويتحسر. لا مجال للمقارنة.

يظل مترددا في النظر إليها مباشرة. لا يريدها أن تضبطه متلبسا، مع ذلك يبقى يراقبها بإمعان، حتى إنه لا يفوت أدنى حركة تصدر عنها. وكلما التقت نظراتهما عمد إلى تحاشيها مخافة أن تستشعر أنه بصدد مراقبتها. لا يريد أن يكون مفضوحا لديها. ليس من اللياقة أن يفعل ذلك. لكن لا يبدو أنها تهتم له إلا حين تقرر التخلص من سيجارتها.

انتهت تنظر إلى حيث يمكنها إذا ما أوقعتها أن تستقر. وحين اطمأنت إلى خلو الشارع من المارة أفلتتها من بين أصابعها، وتابعت سقوطها. وما إن رأتها تسكن على الأرض، وعلى قارعة الطريق، حتى حملت بنظرها إليه. ووجدها تبتسم له في إعلان واضح ومكشوف، وكانت ابتسامتها تعلن عن تواطؤ، فكأنها تعتذر منه على فعل ليس من الآداب العامة في شيء.

بماذا أوحى لها فيما هي تنظر إليه؟ وماذا قررت بشأنه؟ ثم لماذا تلك الابتسامة؟ وهل يمكنها أن تشي ودون مبالغة بأكثر من التواطؤ، بعدما اكتشفت صاحبتها أن هناك من ضبطها متلبسة بخرق نظام عام؟ وهل راحت حينها تعتذر منه بطريقتها الخاصة. تمنحه ابتسامة ليغض الطرف، فتتنصل مما كان؟

كلما ابتسم إليه أحدهم خطر بباله أنه يعرفه معرفة أكيدة. بهذا أمست توحي له شهرته؛ ثم لا يلبث أن يكذِّب ذلك الفيض في يقين

قاطع. في هذه البلاد أنت محظوظ إذا ما صادفت أحدا يهتم بالفنون، ولعل الرسم أقل حظوة فيها جميعها، ومثله الرسامون في هذه الحالة، وأما الذين يمكنهم أن يكونوا قد سمعوا باسمه يتردد هنا وهناك، فإنهم أبدا لن يتعرّفوا على شكله من أوّل وهلة. ليس نجما سينمائيا بارزا ولا مغنيا شهيرا. هكذا يعود فيحتفظ برباطة جأشه بعد أن يبادلهم بدوره الابتسام محتفيا بما يحدث في تلك الوجوه من غبطة وسعادة، مكتفيا بها، وغير معني بأسبابها أو الداعي إليها؛ فأن تبتسم في وجه أخيك صدقة، كما يقول أهل هذا البلد أنفسهم.

ابتسم لها بدوره. ثم ماذا عساه أن يفعل غير الابتسام متواطئا معها؟ لكن هل تكون قد لاحظت ابتسامته؟ يخشى أن ملامحه ظلت جامدة، إذ وجبَ لعجوز مثله أن يبذل جهدا أكبر حتى يتلون وجهه ويكتسب مزاجا ضاحكا. وربما كان عليه أن يصر أكثر حتى يمنحها ابتسامة جديرة وتستحق!

التفتْ توليه ظهرها، لتعود في عجلة من حيث أتت. وشاهدها وهي تنط وتقفز فكأنها تخشى أن يعلق بقدمها شيء من القذارة المتجمعة في شرفتها الذي لم تفتح منذ عهد. ثم بلغته القرقعة نفسها لما راحت الشرفة تُفتح. أغلقتها هذه المرّة، كما أطفأت نور الغرفة، فلفَّت الشقة الظلمة والصمت، وعاد كل شيء إلى سابق عهده.

لا يذكر أنه لمح قبل اليوم ما يشي بالحياة في الشقة المقابلة، حتى إنها بدت مهجورة تماما. ولهذا السبب أيضا داهمه، وللحظة، شعور بأن الشابة ليست إلا وهما ابتدعه خياله المفرط في حساسيته. ومتابعة الشقة

بالنظر وهي في حالة سكون مطبق، ومن دون أن يعثر على أي حياة بها، يغذي شعوره بالوهم. وهتف بينه وبين نفسه مفندا هذا الاعتقاد. لقد كانت حقيقية تماما؛ مع ذلك لم يملك دليلا واحدا ليقنع به نفسه، اللهم إلا إذا ما عادت الشابة ثانية، وطرقت الشرفة مجددا. فهل عليه انتظارها؟

ربما عليه أن يفعل، لكن ليس إذا ما تأخرت كثيرا.

ما إن تُضاء أنوار الأعمدة الكهربائية حتى يستشعر أنه موعد أوبته إلى الداخل. إن هذا ما يحصل دائما، لكنه هذه المرّة لا يكاد يتزحزح. يبقى مدّة إضافية يراقب خلالها الشرفة المقابلة فيما رجاؤه في تراجع. ولو أنه لمح ضوءا يتسلل من خصاص شُبّاك الغرفة الموغلة في الظلام، يكشف ويؤكد له أن هناك حياة في تلك الشقة لشعر بالرضا، لكن الوقت أخذ يمضي ثقيلا، حتى سمع كارين تهتف فيه من الداخل:

- لقد تأخر الوقت، والطقس لا بد بارد في الخارج.

تُنبِّهه، فينهي أمسيته في الشرفة، وينسحب داخلا. يفعل ذلك كما لو أنه يجر خلفه جسدا متهالكا وميتا. يمر على الصالون، ويتساءل إذا ما عليه أن يبقى إلى جانب زوجته. تلمحه بدورها، فتسأله، هل تحتاج لشيء؟ لا يحتاج شيئا، وربما عليه أن يلجأ إلى غرفته، ويتمدد على سريره حتى يحين موعد العشاء.

على السرير يعود فيذكر الشابة. ويتساءل مجددا، هل كانت حقيقية؟ وبقدر ما يمعن في ريبته بقدر ما يزداد تعلقا بها. وواضح أن هذا أخذ يحصل معه على نحو غامض، حتى أنه عندما حاول استعادة صورتها بدت له أشبه بغيمة بيضاء لا تفاصيل لها.

إلى باية
الجزائر - الأبيار

25، جانفي، 1975

"عزيزتي باية، أكتب إليك متجرئا، وإن وقفت حائرا غير عارف كيف أخط اسمك، فهل علي أن أكتبه دون إضافات، أو يجب أن أقرنه بلقب زوجك محي الدين، بعدما أصبح كذلك منذ زمن؟ كذلك لا أعلم كيف أخاطبك، أكما كنت أفعل دوما، وخلال أول العهد بالصداقة، أم بأسلوب الجمع، كما يفعل أولئك الذين لم يسبق لهم التعارف، وكما يفعل الغرباء؟.. وإنها لمعضلة كبيرة بالنسبة لي ما دمت أخشى سوء الفهم، وأنت تدرين كيف ظل يتربص بنا سوء الفهم هذا على مدى سنوات طويلة.

أكتب إليك الآن وأنا ساخط. ساخط على نفسي، وعليك أنت باية، وعلى الحاج محفوظ محي الدين زوجك، وعلى الجميع.. أكتب بعدما لم أعرف كيف أبقى هادئا.. أكتب وأنا مشحون بالتوتر والغضب.. وأكتب لأن هناك أشياء لا تعجبني، ولا أدري لِم تركت كل هذا الوقت على حالها مهملة، ودون أن يتكفل أحد بعلاجها!.. أكتب وأنا أشعر بمزيد من السوء والقسوة، وأسأل حالي كيف يمكن للإخوة

والأحبة أن يتنكروا لبعضهم البعض، وينسوا بسهولة ما كان بينهم من ود.. أكتب وأنا مغمور في الحزن، ولا يمكنني أن أفهم كيف لامرأة فنانة رقيقة مثلك أن تتجاهل ما مررت به من وضع صعب، وتغفل على أن تبتسم لي في عزّ مرضي، وتمنحني ولو ابتسامة صفراء منكرة؟

سأحاول أن أصدقك القول، إني توقعت زيارتك لي أنت وزوجك، وتصورت في أسوأ الحالات أن يُكاتبني أحدكما أو كلاكما. أن تسألا عن حالي، وتتمنيا لي الشفاء؛ وعندما لم يحصل ذلك شعرت بالغبن، وتساءلت أي جرم اقترفته حتى يكون من نصيبي هذا الجزاء؟

مُكلفة هذه الحياة، فهي لا تلبث تمتحننا حين تضعنا وجها لوجه أمام خساراتنا، وحين تذكرنا بها متى اعتقدنا أن كل شيء انتهى إلى النسيان. قاسية أيضا، وموغلة في الفظاظة والقسوة حين تعرِّينا وتكشف لنا كم كنا واهمين نخادع أنفسنا، فلا أحد ينسى، ومتى أدركنا ذلك تعاظمت نكباتنا حتى نتمنى لو ينتهي هذا الشقاء الآن وحالا.

لا يمكن لهذا الخلاف بيننا أن يستمر إلى الأبد!.. لا يمكن لسوء فهم بسيط أن يلوث حياة كاملة، ويقضي علينا بأحكام جائرة وغير معقولة!

بربك، لتنظري حولك، وإلى أولئك الذين يتسلون بهذا الخصام، ويتلذذون بالفرقة بيننا، ويشيرون حيث نكون، ومتى سنحت لهم الفرصة، نافثين ما فيهم من بغض وغي، وقد يعمدون إلى المزيد من التأليب بيننا، بينما أنا وأنت مشغولان عما يحاك في الخفاء ضدنا، لأنه ليس من طبيعتنا لا الحقد ولا الجفاء!

أحاول كلما وُجِدتُ في مكان وجرى الحديث عنك أن أتأمل في عيون الحاضرين. أنظر إليهم، عليّ أكتشف ما يثبت ذلك الذي أخمن فيه، أي أنهم يعرفون أننا نعيش قطيعة غير معلنة. أحاول أيضا أن أحدس موقفهم منها. هل يتشفون مثلا؟ هل يروقهم ويسليهم أمرنا؟ لأنتهي إلى الإقرار بأنهم إما لا يعلمون شيئا أو أنهم بارعون في إدعاء اللامبالاة ليتسنى لهم رصد مشاعري بكل راحة ولؤم.

ولأنه لا يمكنني التهرب حينها، ولأنك تَصيرين موضوعا لهم لا يسعني إلا أن أدلي بدلوي في الحديث الدائر. هكذا أدعي بدوري أني أعرفك، وأبدي ذلك الرضا المطلق، فأعترف قائلا: "فنانتنا الموهوبة، مبدعتنا المدهشة، رسامتنا المميزة.."، مع ذلك عندما أحاول أن أسهب في الكلام يدركني العي، وأكتشف أني لا أملك ما يمكنني قوله، فأنا بالكاد أعرفك، ونحن لا نلتقي، وأما لوحاتك فيمكنها أن تعني لي ما تعنيه لفنان غريب يظل يتأملها عن بعد قبل أن يمضي.. فهل يحصل معك ما يحصل معي؟ ثم كيف تتحدثين عني حين يأتي ذِكر لي في السياق؟ هل تستعيرين مني نفس الكلمات دون انتباه؟ هل تقولين ما أقوله أنا عنك، فتهتفين في فخار، ذلك فناننا الموهوب، مبدعنا المدهش، رسامنا المميز.. أم تتنكرين لي، وتتجاهلينني عمدا وإمعانا في الغلظة؟

ما لا أتوقعه في كل الأحوال، أني لما أقتحم مجالك عنوة ودون إخطار، أن تتحدثي عني في لؤم مفرط. ليس من شيمك ذلك، أعرف؛ مع ذلك يكفي لصمتك وحده أن يخزني، وليجعلني أشعر بالسوء والمرارة، ما دمت لا أفهم لِم يحصل هذا؟ وكيف أصبحنا أغرابا،

ويمكننا أن نكون أقرب وأقرب؟ وإذا ما بقي لنا شيء، فلا أظنه غير الحسرة، الحسرة على أمور كثيرة كان من الفروض لها أن تحصل بيننا ولم تحصل، غير ذلك لا يوجد غير الاحترام، والحب الذي يوجبه هذا الاحترام، أو هذا ما يُفترض أن يصير!

ثم ها أنا أُلفتَ انتباهك إذا ما فاتك ذلك، فهل تدرين أنه جمعنا في اللقاءين اللذين حصلا بيننا مكان واحد؟ أليس غريبا هذا؟ فكأنه أبى-هذا المكان-إلا أن يصير شاهدا علينا في الحالتين!

أذكر أننا التقينا أوّل مرّة في معهد الفنون، أين اشتغلتُ أستاذا في فن المنمنمات. يومها ولا أزال أذكر ذلك بشدّة، تحمست لمعرضك الأول الذي أقيم لك داخل أروقة العرض عندنا؛ كما حصل الأمر عقب نجاح معرض أقامته لك وقبل عامين من ذلك مؤسسة **ماغ** الفرنسية في باريس. وفي فسحة أُتيحت لنا دعوتك على شراب في الاستراحة، شاركنا فيه أكثر من فنان، فقد كان هناك سيرج شوفالييه، وبوشي مارتنيز، وعبد الله مرزاق، ومولاي السنوسي، تحدثنا عن همومنا وأحلامنا كفنانين، وأعربتِ عن إعجابك برسوماتي، وكشفتِ عن امتنانك للنجاح الذي تُحققه، وبدوري أبديت اهتمامي بموهبتك وبما تُنجزينه من لوحات، وحاولت أن أشد من أزرك في عالم لا يحفل إلا بالأقوياء، إذ لطالما استندت الفنون على العزيمة وراهن الفنان على مثابرته. وأخبرتك أنت الشابة والفتية أنك تذكرينني ببداياتي، وقبل أن أتمنى لك النجاح أوصيتك باللجوء إلي إذا ما احتجت إلى شيء، وافترقنا على كثير من الود والحب.

في اللقاء الثاني، وفي باحة المعهد نفسه التقينا مجددا، وكنتِ حينها تساهمين رفقة فنانين آخرين في معرض أُقيم عقب الاستقلال بعدما عُدت إلى الرسم والمشاركة في المعارض عقب مقاطعة منك امتدت لسنوات. وأذكر أني يومها مددت لك يدي بالسلام، لكن ما لا يمكن أن أنساه أني تلمست يدا من صفيح بارد، كما تلقفت منك أيضا نظرة تخلو من كل أريحية، نظرة حاولتِ مداراتها بلامبالاة قاتلة. ولا عجب أن تُعلني بعدها مباشرة أنك مضطرة إلى الاهتمام بزوارك، لتنسحبي بسرعة وكأنك تخشين من الوقوف للحظة إلى جانبي. وبعد أن رحبتُ بكِ كضيفة بيننا انسحبت بدوري، ولم أسع لإزعاجك محترما فيك خيارا لم أفهمه.

هل جبنتُ أنا ساعتها، لأني لم أسألك لِم هذا الجفاء والبرود حتى لا أكون أكثر قسوة على نفسي؟ وهل خشيت إذا ما أنا فتشت عن سر هذا الارتداد الغريب، أن أتحوّل إلى يد لك أخرى تسوطني على ظهري؟

لم أسع لأخوض معك أي نقاش، خشية أن تتضاعف صدمتي، فأشعر بالقهر والحسرة وأنا أستقبل كل تلك السهام التي بادلتها بالنبل.

ثم ما الذي حصل، ويستدعي هذا القدر من العداء والجفاء؟

لقد اعتقدت أننا تجاوزنا خلافاتنا، وأن ما حصل في الماضي بات خلفنا، وأقبلتُ بما في من حماس لأرحب بك، فإذا بي أصدم!

لا رغبة لي في تذكيرك بكل تلك الأحلام التي خذلناها، وبكل تلك الهفوات التي حدثت عقب ذلك، وكان يجب ألا تحصل. لماذا

لم نتجنبها بمزيد من الحرص؟ هل لأننا غدونا مندفعين أكثر من اللازم؟.. غالبا هذا ما وقع، حتى إننا بدونا خاضعين لسطوة أكبر منا، سطوة تحوّلت مع الأيام إلى جحيم يتلظى فيه كلانا.

أشفق على نفسي هذه المرّة، وفي كل حين، ما دمت أراني لا أستحق منكِ تلك المعاملة القاسية، ولأني لم أفعل ما يسيء، ولأني أكثر من ذلك لم أستطع أن أمنح نفسي القدر عينه من اللامبالاة اتجاه أمور تحصل، كما يتفق ويقول الجميع.

أشفق على نفسي، ولا أفهم كيف انتهينا إلى ما يشبه العار، وإن يظل يعنيني في هذه اللحظة التي أكتب لك فيها أن أذيب هذا الجليد الذي تراكم على مرِّ السنين، وها أنا ألهث باتجاهك عساي أنقذ شيئا ما، صداقة لطالما طفحت بالمشاعر النبيلة، ووِدا قديما أملت أن يمنحنا ذكريات أجمل لولا ما فينا من تصلب وبؤس، وصورا من الماضي أسعى بما أوتيت من جهد أن أسعفها، لأني لا أريدها إلا نقية كالثلج وناصعة كالشمس. وإني إذ أفعل أعوّل على الحوار كمنقذ، ولأجله أذهب بعيدا باتجاهك وباتجاه محي الدين زوجك، مع ذلك سيكون شاقا أن أعود خاوي الوفاض مفلسا ودون أن أحظى بأي اهتمام كمن لم يفعل وكمن لم يشق!

يمكنني أن أستوعب نقطة خلافنا، أن أدركها في ذلك الزمن، أي حين وقوعها، فبعضنا وجد نفسه مضطرا، ولم يكن بحاجة حتى ليبرر كما هو شأن جبهة التحرير مع القضية التي تجشمت حملها، والدرب الذي رأت أنه منفذها الوحيد إلى الاستقلال والحرية. لقد سارت في

نهجها باندفاع وحماس كبيرين وبحس عال أوجب خيارها، لكن ماذا عنا نحن الذين لم نُستشر في هذا الخيار؟ ماذا عن البقية التي لم تؤمن بهذا النهج الذي حاول الآخرون فرضه من منطلق حساباتهم ومنطقهم، ولم تره كحتمية؟ ماذا عني أنا الذي ظللت اعتقد في الفن وجودي الأوحد، واعتبرته ملجئي وحريتي في نفس الوقت؟

أن تطلب مني ألا أرسم، يعني أن تقول لي كف عن التنفس!.. إنك تحكم علي بالاختناق، وما تريده مني حينها يفوق عندي الإيثار والتضحية. ولن يكون أمامي وفي هذه الحالة إلا أن أرفض، ليس من منطلق أنانية مفرطة، بل لأني أبصر العالم على طريقتي، وبالشكل الذي أراه فيه يتجسد لي؛ وأما النضال فقد آمنت أن الجميع يناضل بما يسعه، وبالطريقة التي يفهم فيها دون جبر ومن غير مكائد. إنها قناعات سيدتي، وهي أبدا ما كان لها أن توجب أي حرب بين أبناء الوطن الواحد.

لقد كنت إِذْ أرسم لوحاتي وشخصياتي، أجعلها من روح هذا البلد، ولهذا أنا أكثر من جميع الفنانين من يُمثِل تاريخه وهويته. وفي كل المحافل الدولية ظل الآخر الذي يمارس علينا القهر والعدوان مضطرا إلى التعامل مع لوحاتي دون نكران. وما فتئت أجبره بطريقتي أن يتأملها وينصت إلي عبرها. ولم يستطع من فرط المواجهة أن يغض الطرف عنها أبدا، ولم يقدر أن يتجاهلها ما دامت تخاطب الفن الذي يفهمه ويؤمن به، ولزم علينا نحن كفنانين أن نفهم هذا أيضا ونعي أنه معركتنا وسبيلنا إلى الانتصار، وما استغربت له ألا يؤمن فنان مثلك

ومثل زوجك الحاج محفوظ بذلك، ولا تثقا في الفن الذي نمارسه بتوق وإيثار، وتريا فيه الكفاية!

إنها حربي أيضا، وأنا لم أنتكص ولم أنته في أي لحظة منها جبانا. نعم، خضتها على طريقتي. وقد ترينني أميل إلى تبرير ما حصل، وربما أحاول أن أفعل ذلك من حيث لا أدري، لكني من المستحيل وفي هذه اللحظة أن أنافق نفسي، لأني موقن أن ذلك ما أظل أراه، وإنه هو نفسه الذي أتجلاه اليوم وغدا. وحتى إذا ما عاد بي الزمن إلى الخلف، فإني سأعيد نفس خُطاي، وسأحتكم إليها بمزيد من الإصرار، فأنا لا أستطيع أن أصير، وفي جميع الحالات، إلا نفسي.

ثم ما لم أفهمه أبدا، كيف اعتقد الحاج محفوظ زوجك أني من كتب تلك الرسالة التي تدعوك إلى التخلي عن فكرة المقاطعة والتي سبق وأعلنتِ عنها في ذلك الظرف الشائك والصعب رفقته، ومع ثلة من الفنانين، التزاماً بخط الجبهة السياسي. مقاطعتك للرسم وللفن الذي تحبينه، ومقاطعة المعارض حيث يسعك تمثيل شخصك وبلدك، والارتهان لحالة الجمود والتي تعني الغياب، إذ تقصين نفسك بنفسك، حين يمكن للحضور أن يكون أكثر وقعا وأثرا؟ هل لأنها وُجِّهت باسمي، أم أكثر من ذلك لأنها رسالة بُعثت لك أنتِ تحديدا، وخاطبتكِ دون سواهم؟ أو هل فهم من خلال دعوتها لكِ بالعودة إلى الفن والرسم ومشاركتنا المعارض أنها تعني فيما تعنيه إجبارك على عصيانه والحرص على التأليب والإيقاع بينكما؟ وهل اعتقدَ أني أحاول أن أقف إلى جانبك ضده، غير مستوعب أني لا يمكنني إلا أن أقف إلى جانب

الفن، الفن الذي يعيش لأجله ويحبه هو أيضا؟ ثم كيف يصير ذلك، ونحن ندرك تمام الإدراك أنه لستِ من يملى عليه ما يفعل، ولطالما شهدنا أنك صاحبة قرارك وشأنك؟

لا يكفي أن نرسم، ونراكم ما نرسمه في زوايا البيت. إذا لم يشاركنا محبو الفن ما نفعله، فاعتقد أن ذلك يوّلد لدينا شعورا فادحا باللاجدوى واللاقيمة. نحن لا نرسم لأنفسنا إلا إذا كنا محض أنانيين وجبناء. وحتى إذا ما تهيأ لنا إمكانية ذلك، فيجب أن نقمع ذلك الشعور. وأعتقد أن الفن هو أن نعيش للآخر، وننذر حياتنا له كما نذرناها للفن نفسه. ولهذا ترين كيف نهرب من همومنا الأخرى ونضحي بكل أفراحنا وسعادتنا لأجل أن نرسم، ولا عزاء لنا إلا حين نرى الناس تحتفي، وفي كل مكان، بما أنجزناه.

لقد ظل كل جهدنا لصالح الفن، وإن التخلي عنه من باب الواجب، وبدافع التضامن مع الثورة ليس حلا أبدا. كان هذا رأيي ورأي من والاني، وإنه من المفروض أن يحترم الحاج محفوظ توجهنا، لأننا لم نطرق فيه إلا سبيل النصح، وأن تتخذي موقف زوجك ما كان يجب أن يعني أبدا أن تفهمينا بالخطأ، وأن يناصبنا كلاكما العداء، ويحاول أن يشعرنا بالخزي جراء موقفنا المختلف.

إني لا أكف عن الشعور أنه هو سبب هذا الجفاء وتلك القطيعة. ويمكن الاستدلال على ذلك أيضا من خلال اللقاءين اللذين جمعا بيننا، فالفارق الوحيد أن الحاج محفوظ لم يكن موجودا في حياتك خلال اللقاء الأول ثم صار موجودا عندما التقينا في المرة الثانية. وربما

أنا نفسي أراكم بعض الضغينة له من حيث لا أدري، ضغينة أتفاجأ بها الآن تطفح على السطح. ورغم خجلي بها لا أسعى لأن أداريها، بل أفضِّلُ أن أعلنها أمامك ودون أدنى تحفظ ما دمت لا أسعى إليها كهدف، وبل أنشد سُبل قمعها ووأدها. وصدقا إني أتمنى لو أن هذا الشعور بالخلاف قائم في ذهني أنا فقط، وهو مغروز هناك ومثبت بعمق بحيث لا الكلاليب ولا الريح العاتية يمكنها أن تزعزعه أو تهزه، وأنه لا شيء منه في الحقيقة، وأنه وليد خيالاتي الواهنة وتصوراتي التي تنزع نحو العداء ما دامت لم تستوعب موقفا حصل في الماضي، فترسّخَ فيه دون وجه حق، وكان من الأجدى بي أن أتجاوزه ما دمنا أبناء اليوم.

عاش والدي رحمه الله يردد، إن الحقد كالنار تأكل صاحبها. وكان يحذرني من أن أحقد، لأني سأتحوّل أنا نفسي إلى حطب لنار مهلكة لا يسعها شيء. ومنه أيضا تعلمت أن أحارب بالحب والاحتواء، ثم جاء الفن وفي خضمه اعتقدت أني أصير أقوى، وبه يمكنني أن أترفع عن الأحقاد والضغائن الصغيرة، فلا أجمل من أن تصنع منك مثالا وقدوة. وفي بلدي لطالما كنت جزائريا، ولا أزال، وكذلك هم غيري ممن اختلفنا معهم، ولا يسعنا لنعيش بسلام ولنحمي بعضنا إلا بتنحية الأحقاد جانبا، ودون مصالحات كبيرة نصبح كمن يرعى تشرذمه ويتسبب في وهن جسده الأرحب.

ما حصل قد حصل. إنها مرحلة وانتهت إلى حالها، هذا ما ظللت أعتقده، لأكتشف أننا رهن تواريخ قديمة، وقرارات عفا عليها الزمن، وأحقاد من الماضي. فما الذي صار لننتهي ملوثين بهذا القدر؟

إني أحتاج إلى أن تنصفيني قليلا، وأن تدافعي عني بأقل قدر من الجهد والمسؤولية، حتى أستطيع أن أتجاوز هذا الشعور، بأني منبوذ ومحتقر لدى كليكما. وأنا إذ أكتب لكِ (لكما)، فلأشفي ضميري من ضغينة لم أشأ أن أكون طرفا فيها، ثم ها أنا ذا أمد يدي في انتظار أن تتلقفها أيديكم.

صديقك الفنان محمد راسم"

الرسالة
الثالثة

هكذا، ما إن شعر بتحسن في صحته وقدرته على المشي حتى قرر المناورة. وراهن على الخروج كسبيل للتحرر من كابوس البيت، ومن طول ارتهانه إلى الفراش. وسيسعده، لا محالة، ترضية رجليه من جديد، وزيارة المقهى والجلوس إلى أصحابه، والحديث إليهم في نفحات تخفف عنه ضجره وقنوطه.

وقد اعتاد لأجل الوصول إليهم أن يركب تاكسي ينطلق به من الأبيار أين يقطن نزولا حتى ساحة أودان. ومن هناك يبدأ المشي لمسافة طويلة يخوض فيها ببطء، فيعبر ساحة البريد المركزي ثم ساحة الأمير عبد القادر وصولا إلى نهج بور سعيد أين تقع المقهى وإلى جوارها مسرح وبالي الجزائر. وعادة ما يستغرق نحو ساعة كاملة في مشواره مع تقديم أو تأخير بسيط لا يمكنه أن يثير اهتمامه، ما دام وطول الطريق يظل مقصيا في مكان بعيد، حتى إنه بالكاد ينتبه فيتأمل من حوله الشوارع والمحال والمارة.

وما إن وطأت قدماه عتبة المقهى حتى لمحه الرفاق. وحين أقبل عليهم رحبوا به بحماس زائد، وأمكنه أن يستريح على مقعد اختاره،

كذلك تنعم ببعض الأنفاس قبل أن يجيب على أسئلة تعلقت بصحته ومرضه وأحواله عامة بلامبالاة ظاهرة.

- كانت العملية ناجحة، وأنا أتعافى بشكل مدهش. ولأني أشعر بالتحسن، عزمت وحضرت للجلوس بينكم.

ولا تفاصيل زيادة. ليس من عادته الشكوى أو التذمر، ولا يرغب في أن يجعل من نفسه موضوعا أثيرا للحديث، كما لا يحب أن يكون محط الأنظار، وكلما تجاهلوه شعر أنه بحال ممتازة.

وجد الجو في الداخل أكثر دفئا، ولم يرغب في نزع معطفه فأخذ يتحمل السخونة مع بعض العناء. وكانت المقهى عبارة عن فسحة كبيرة بلا حس أو ذوق، اجتمعت فيها طاولات خشبية مربعة، وحولها وُضِعت كراسي متهرئة طليت بالآجوري الغامق حتى لا تفضحها القذارة المترسبة عليها من فرط الاستعمال، وأما الجدران فاصطبغت بالأزرق السماوي، وإن بانت كامدة. ولم تستطع الإنارة الشحيحة تخفيف وطأة الكآبة وهي تشع وتكتسح ما حولها كما في حرب غير معلنة. وظهر جليا أن المكان يفتقر إلى الذوق، وبلا أي لمسة فنية، إذ تعجب كيف قُيِّد لفنانين أن يرتادوه. ويبدو أن الأصحاب قد تآلفوا مع الوضع، حتى إنه لم يكن ليثير التفاتتهم أو يتسبب لهم في أي إزعاج يذكر. ولعل ما يميز هذه المقهى تحديدا أنها تقع بجوار المسرح وبالي العاصمة، بما يعني أنها من المفروض أن تغص بالرواد من أهل الفن. والحق أن راسم وأصحابه ظلوا يجلسون فيها ومنذ اعتادوها كمنبوذين، ونادرا ما أعارهم الوافدون عليها انتباههم أو تعرفوا عليهم.

ولعل من حسناتها الوحيدة أنها غير غاصة بالرواد بما يجعلها تبدو هادئة على نحو مدهش. وإنها بسبب ذلك تمنحهم فسحة معتبرة للرغي والكلام دون شعور بالضيق أو الإزعاج.

ولم يمض وقت طويل حتى حضر القهوجي، وهو يسأل راسم:

- قهوة كالعادة؟

لكنه كان قد عاد بمزاج وروح جديدتين، لهذا التفت إليه يقول:

- أفضل كأس **أتاي**.

ودبّ حديث حميم، رافقته بعض الدعابات..

- الآن فقط اكتملت الشلّة.
- وكأنك تصر على أنها لا تكتمل إلاّ به!
- هذا إذا لم يكن لكم رأي آخر!

تتردد الأصوات، فكأنها علّة هذا الوجود. ولا يلبث أن يضيع أثر كل عبارة في أعقاب أخرى تصدح لتعقبها. ولا يدري أحد إذا ما هو حديث هازل أو جاد عندما يعلن أحدهم:

- هل نطلب لك كأسا؟

وينبري غيره يرد، فكأنه المعني بالأمر:

- تعلم إنه يقاطع الشرب منذ زمن، فلم تسع إلى توريطه؟

لا ضير في ذلك. ولعل الأمر يحتاج إلى الاحتفال حقا. ولهذا هناك من يواصل بالنبرة نفسها:

- لطالما شربنا في صحته، ونريد أن نشرب في صحة هذه العودة.

وها هو صوت آخر يعلن وسط الجماعة، لكن هل سيرسخ، وهل سيبقى له أثر؟

- لنشرب في صحة الفنان بوجمعة، ضيفنا في هذه الجلسة.
- لنشرب في صحة أشهر مطرب شعبي اليوم.

وتبدأ مناوشة بريئة..

- نعم أشهر مطرب شعبي لا تسمعه؟
- من يدعي ذلك؟
- أنت، ما دمتُ لم أرك تحضر له ولا حفلة.

فإذا ما شعر المعني بالكلام أنه محاصر تأهب للدفاع عن نفسه. ولا يمكنه أن يفتقد القول والحجة في هذه الحالة.

- أنصِتُ إلى أسطوانته بإعجاب، ألا يكفي هذا؟ ثم ماذا سيفيد بوجمعة دعم فنان من النخبة بالكاد يعرفه أحد!

ويبدو جليا أنه يكسب متعاطفين معه. كما أن هناك من يُعقِّب على كلامه، ويؤكد قائلا:

- نعم، دونه نحن هنا في هذا المقهى نبدو أغرابا.
- من يعرفنا اليوم؟ موجة الشاب غطت.

ثم لا يمكن أن ينكر وجودهم أحد. وها هم يدافعون عن أنفسهم بمزيد من الإصرار، متناسين أنهم بدأوا كلامهم بالمزح.

- لا يمكن حجب الشمس.
- تكاثرت الشموس، حتى عاد لا أحد يعرف أين هي الشمس الحقيقية اليوم!

وواضح أنهم انبروا يستعيدون حديثهم السابق. يحدث هذا دون إعلان صريح. إذ لا يجب تأخيره أكثر.

- كنا نتساءل قبل جلوسك إلينا، إذا ما كان تنظيم الجزائر لألعاب البحر المتوسط سيخرج البلد من عزلتها، ليصير نجاحا آخر يضاف إلى نجاحات سابقة تحققت على الصعيد الدولي.

ويظهر أن هناك من لا يمكنه أن يهضم فكرة الحديث عن النجاح، خصوصا في ظل وضع متشابك ومليء بالتعقيد.

- الشعبوية لا تُقدّم إلا طريقا واحدا، وبقدر ما هو مزين بالورود بقدر ما هو محفوف بالخطر.
- لا يمكن الترحيب بسياسة تكيل بمكيالين، تُقيم الألعاب، وتُحارب المثقف.

ولم يشعر راسم أنه مستعد لخوض غمار حديث محتدم، فوقف على الناصية يتابع، لكنه لم يلبث طويلا حتى تأثر بالجو العام. ولم يعد باستطاعته أن ينأى بعيدا، ويبقى منعزلا ومكتوف اليدين في حين أنه غير قادر على ضبط انفعالاته. ووجد نفسه مضطرا إلى التعليق ما دام له رأي فيما يقولون، حتى إذا تدخل أوّل الأمر أدرك أن التقدير خانه، وأنه تورط، ولم يعد بمقدوره التراجع.

- الدفاع عن السياسة هو دفاع عن رؤية الحزب، والذي منه تستمد السلطة شرعيتها.
- لا تتقدم الدول إلا بفنانيها ومفكريها، وأما الرياضة...

- الرياضة باتت اليوم أيضا واجهة، وواجهة مهمة، ولا يمكن التنكر لما يسعها تحقيقه.
- الألعاب المتوسطية مثلها مثل ملتقى الفن في سيدي بلعباس. ملتقى معلن خطه السياسي. وكل المدعوين إليه إنما منوط بهم أن يُلمّعوا واجهة الدولة. يجب أن يبقى الفن بمعزل عن السياسة.

خلال حديثهم لم يكونوا ملزمين بخط أو موضوع واحد. وإن بمقدور هبّة بسيطة أو تلميح أو نزوة أن تنحرف بهم، وتسحبهم إلى مواضيع أخرى لم تكن للحظة قَبلُ تخطر على بالهم. وها هم ينقلون حديثهم من السياسة إلى الفن، ثم إلى التندر والعبث، ودون أن يمنعهم شيء من تناول حيواتهم الخاصة.

- على راسم أن يقبل بمشاركتنا الأيام الفنية في سيدي بلعباس، والتي ينظمها الاتحاد الوطني للفن التشكيلي.
- نحن نريد أن نحتفي بك، وأن نتمتع بجولة معا كما الأيام الخوالي.
- على الأقل لا يمكنه أن يرفض دعوتي إلى البيت. وأعِده بأننا سنفتح بهذه المناسبة زجاجة شامبانيا فاخرة نخبا بعودته.
- السهرات الرجالية لا تناسبه، وربما سيكون حريصا على فتح أشياء أخرى غير الشامبانيا، لو توفرت.

أبدا لم تعن راسم تلك الاجتماعات، وإن كان يلبي بعضها مجاملا ومرغما في أحايين كثيرة، وأما النساء فقد قاطعهن منذ زمن

طويل معترفا بأن الزمن هزمه، وأنه ليس لديه ما يعرضه عليهن غير عريه. وها هو لا يجزع. وإنه يعلم أن ما يحصل الآن مجرد عبث وسخرية يمتحنون من خلالها شيخوخة تعلن عن نفسها كل يوم أكثر. هكذا يُمعِنون في العناد، حتى لا يبدو عليهم الاستسلام.

ولأنه يواجههم بالصمت هذه المرّة، ويصر عليه، يتواصل المزح نكاية فيه.

- رفقا بالرجل. ثم لا تلحوا عليه، حتى لا تغضب السيدة كارين.
- وما دخل السيدة كارين بالموضوع؟
- لنترك سيدات البيت لشأنهن!
- ليس قبل أن أعرف أيهما زوج السيدة!
- واضح أن الأجلاف مثلك لا ينضبطون.
- شهادة أعتز بها.

ويتحدث كل واحد بمنطقه. وإنهم مثل الموج يُغالب بعضه بعضا، وإن كانوا سينتهون إلى مجرد زبد لا معنى له.

- تكاد الحياة تلفظنا، مع ذلك تصر أنت على عبثك.
- دعنا من حديث النهايات، وإلا فإننا سنختلف!
- على عكسكم أنا لا أخشى الموت. إنه لا يصيبني بأي قلق.
- ليحيا البطل.

إنه واحد منهم يهتف مازحا، معتقدا أنه هنا ليهدر. يفرغ حمولته، ويسلي نفسه، وإذا ما تحقق له ذلك عدّ نفسه سعيدا، على أن صاحبه

ليس بمثل خفة دمه، وها هو يحتد ما دام يعتقد أنه يدافع عن شيء هو أقرب إلى قلبه، ولا يمكن لكلامه في هذه الحالة إلا أن يأتي رصينا.

- لا أبغي نيشانا، ولكني أريد أن أكون صريحا معكم.

ويظهر أنه لا أحد هنا ليعتقه، ما دام يريد دورا جادا فيما هو يجلس وسطهم. وينطق آخر يعانده:

- يعتقد أن تديُّنه ما سينقذه في النهاية. وأجدني أغبطه، وأتمنى لو أعرف خيارا كخياره.

ويناور من يصر على الجد بما هو متاح، فلا يصمت.

- لا تزال الفرصة أمامك.

لكن الحديث ينحو نحو الحدّة، ويتواصل ما بين أخذ ورد.

- فرصة ماذا؟ أن أستعيد إيماني؟ أنا لم أفقده حتى أستعيده!
- ربما عليك أن تتخلص من كل تلك الأفكار التي تورطت بها. إنها سجن كبير مظلم لما تعتقد أنها تتضمن الخلاص أيضا.
- لم يكن الخلاص قضيتي. لست معنيا به؛ وأما الجحيم فقد تآلفت معه. إنه صديق قديم، ومن علاماته الحيرة والقلق. ولأنه صديق لي أنا أدعمه مع كل ما يسببه لي من إزعاج.

كأنهم اللاعبون في المقهى، إحدى لوحات بول سيزان القيمة، على أنهم كانوا يرمون بدل الكروت التي في حوزتهم أفكارهم متلقين أخرى كردود. والكل يريد أن يغلب، والظاهر أنهم في النهاية، وإذا ما واصلوا على نفس الموجة، سيخسرون جميعا.

- لا أحد معني بالآخرين حين ينسى نفسه. الخلاص قضية.
- تصر أن تعيدنا إلى النقطة ذاتها. إلى مسألة الإيمان، كتلك التي هي عندك.
- أنت لا تعرفني. لقد كنت سكيرا في زمن ما. وعشت هيبيا أيضا، وليس إلا قبل فترة يسيرة منذ عرفت طريقي.
- نعم، صحيح. ولم يبق لك إلا أن تلبس العباءة والطاقية، وتختمها بحجة إلى مكة، وتشتغل واعظا دينيا.

ويبدو أن الأمر سيان. لهذا تواصل الأصوات هدرها، فيما يبقى البعض متوجسا لا يدري إلى ما سيؤول كل هذا.

- ما أتعجب له، أنه لم يشغلك ذلك. وكأن الخضوع لله الذي خلقك لا يعنيك!
- لطالما استوقفتني مسألة الخضوع هذه.
- بدليل أنك انتهيت خاضعا للحزب.
- هل هذه مذمة، أم مزية؟
- الأكيد أنها تَفْرَقُ وتختلف عند الأعمى والبصير. وأنا بصراحة لا أعرف أيهما أنت!

وكأن جلستهم تضيق بهم!.. وقبل زمن ضاقت الحال بالفنان الجزائري. ومن شدّة معاناتهم آمنوا بأن الثورة جاءت لتحررهم، ولما تحقق الاستقلال تنفسوا الصعداء، واعتقدوا أن الوقت حان لينعموا بهبات الحرية. وكم هو شاق عليهم أن يكتشفوا أنهم لا زالوا أسرى، وأن ما اعتقدوا أنهم كسبوه قد خسروه لما طُلب منهم أن يكونوا واجهة

النظام وصوته وملمّعي وجهه، ليتكرس بؤس جديد يكاد في غمرته يضيع كل جهد!.. ثم اللعنة على كل صباح يشرق، ولا يكاد يختلف فيه اليوم عن الأمس!

وها هي الديكتاتورية تتدعم، وها هم أبناء الحزب من المثقفين والمنضوين تحت جناحه إيمانا منهم بأفكاره وهباته يعتقدون أنه من صميم دور المثقف أن يدعم الثورة ورُؤى ساستها، وهم أنفسهم من أسس لفن مُوّجه وحارسٍ. وليس عجيبا أن ينظَّم إليها قِطاع واسع من شباب الاستقلال معتقدا أنه من واجبه مواصلة الثورة ومسيرة الكفاح والاستقلال. هكذا يسقط الجميع في فخ الشعارات، ويتضخم المأزق الذي يرزح تحت سقفه الفنانون بما يُبشِر بنهاية الفن. وفي ظل الحصار لجأ البعض إلى المنفى، وهناك من اختار تونس، وهناك من اختار سوريا، كما اختار آخرون باريس أو غيرها من المدن؛ وأما من رفضوا الهجرة فقد طواهم الداخل وانتهوا غرقى، ولم يعد يذكرهم أحد.

أمام هذه الخيارات المربكة اختار راسم الطريق معكوسة. كان قد عاش في باريس، ثم لاذ بالداخل. ورغم الضغط والإكراهات إلا أنه ظل متمسكا بخياره حتى اللحظة الأخيرة. وجلي أن لعامل السن أثره، إذ لم يكن يسمح له بالمناورة كما قد يسمح بها لدى الشباب المختلِف من الجيل الجديد ممن يملكون الجهد والقدرة على المناكفة والمواجهة. ولعله يكسب نقطة في صالحه يفتقد إليها كثيرون. وما دام بإمكانه السفر متى شاء إلى باريس، وإلى غيرها من مدن العالم الكبرى فائزا بالدعوات والتشريفات وبالمعارض والندوات، فإنه بلا ريب لا

يشعر بالمقدار نفسه من القسوة، والتي يتسبب بها الطوق الذي راح يشد ويخنق غيره من الفنانين. وفي ظل الخيارات القليلة المتاحة لم يكف من جانبه عن المحاولة، رافضا واقعه، ومؤكدا أنه سيد نفسه وسيد قراراته؛ وأما في العمق، فَلابِدٌ شعور بالإقصاء والتهميش. ولأنه لا يبرحه لا يفتأ يُعوّل على مقاومته بشدّة وبتأس ما بقي فيه نفس.

كان يمكن لمثل هذا الحديث أن يستمر إلى الأبد ما دام ليس هناك ما يزعجهم، لكن راسم ملزم بالانسحاب. تكفي ساعة واحدة بين الأصدقاء. هكذا عقد العزم. وحين أعلن عن نيته في المغادرة حاول الجميع ثنيه عن ذلك، وتأخيره. وواضح أنه غير مستعد لأن يستجيب لهم. ووقف مضطرا ومستعدا، لا يريد أن يعيقه شيء. وهكذا تمنى لهم ليلة سعيدة، ثم خطى موليا إياهم ظهره.

استدار، وسار باتجاه الباب. وما لبث أن احتضنه الشارع من جديد فيما الظلام يسود. ووجد الفضاء من حوله مقفرا، بعدما أخذت أغلب المحال تغلق. وفي الخارج تلقفه برد منفر، فأحكم أزرار سترته. ومال بيده على شعر رأسه يسوي خصلة انفلتت وقد عبثت بها الريح، ثم مضى في طريقه دون أن يشدّ انتباهه شيء.

إلى محمد خدة
الجزائر-الأبيار

06، فبراير، 1975

"زميلي الفنان المبدع محمد خدة، لقد دفعتْ إلي رسالتك التي تلقيتها منك هذا الصباح بفيض من المحبة، كما غمرتني على أثرها سعادة كبيرة، وتأكَّدتُ بما لا يقبل الشك أننا كنا أشقاء وسنبقى.

إنه لمدهش أن تقترح بوصفك فاعلا في الاتحاد الوطني للفن التشكيلي، اسمي للتكريم. وإنها للفتة طيبة حين تختار لذلك مناسبة جميلة كأيام الفن التشكيلي في مدينة سيدي بلعباس. وأن أحظى بالتكريم بينكم يشعرني بالفخار، فلا أجمل أن يحتفي بك من هم أقرب إليك، وبما يؤكد بأن أيادينا وفي كل الأحوال هي على قلوب بعض، وبأننا كنا دائما لحمة واحدة. وأنا إذ ألمس حرصك وأقف على رغبتك في تكريمي، لا يسعني إلا أن أنحني لك تقديرا ووفاءً.

مع ذلك، ها أنا أخشى أن أكون كمن يجابه كرمكم بالضن والجحود حين أجدني مرغما على الاعتذار منكم عن هذا التكريم، وإن كنتُ أفعل ذلك بكل ما في الاعتذار من لطف وامتنان. كما أني لا أعرف كيف أتخلص من هذه الورطة الجميلة التي غمرتموني بها، ولا من

حرجي الشديد إزاءها. ومتأكد من أنكم واثقون كل الوثوق أني في هذه الحالة لا أحاول التملص من محبتكم بأي شكل من الأشكال، وأنه بودي لو استطعت الحضور بينكم، ومقاسمتكم اللحظة والشعور. ولعلكم تعلمون بأني غير قادر على السفر خلال الظرف الراهن، فأنا لا أزال مكبلا بالمرض ورهن العلاج والمتابعة الطبية، كما أعدكم أني سأتواجد بينكم متى استطعت وواتت الفرصة.

ثم إني وأنا أستعيد رغبتكم في تكريمي وحرصكم عليه، يخطر على بالي وجه مشرق وبارز من أوجه الفن والشعر والثقافة في الجزائر الجديدة. وأتساءل والغصة تخنقني، لم لا يكون هذا الشخص بديلا عني وهو يستحق؟ وإني لما أتحدث هنا، لا يمكنني أن أقصد إلا الشاعر الكبير جان سيناك الذي خطفه الموت منا على حين غفلة، وغيبته لامبالاتنا وقلة اهتمامنا عن المشهد في عجلة فادحة. وإني متى ردّدت اسم جان سيناك يعتريني الحنين والألم، وأجد أني أشتاق إلى رجل عرفته وصادقته. ومتلبسا بعاري يحيرني كيف لا أستطيع أن أنصفه! وكيف لا أحسن أن أكون إلى جانبه! ومثله سينساه الجميع حين لا نتذكره نحن، صحبه وأصدقاؤه المثقفون.

لقد تحولت البلاد إلى مقبرة يدفن فيها أبناؤها المخلصون. ويموت الرجال، لنبقى نحن!.. وما يبقينا على قيد الحياة إلا صمتنا، صمت متواطئ وجبان.

ماذا عسانا نفعل؟

ويريم الصمت، فكأن لا جواب بعده!

لا يمكن للصمت أن يسود. وإنه متى لم نستطع الجهر بالقول، ستنطق ضمائرنا، كما تفعل في هذه اللحظة ما دمنا غير قادرين على استيعاب بشاعة ما حصل. ثم كيف لا نستطيع حقا أن نحتفي بمن كان ذات يوم قريبا منا جميعا، وأكثر رجولة منا كافة؟ وهل بتنا من فرط أنانيتنا وجبننا نخشى ونتوقع ردود السلطة العنيفة؟ مع ذلك، ما أقسى ما يمكنه أن تعمله معنا؟ تُجوّعنا مثلما فعلت معه؟ تُرهِبنا لأننا لن نرتعد؟

حين أفكر، يا دين الرب، أن سيناك انتهى الحال به إلى أن يسكن قبوا في البلد الذي حارب وعاش لأجله يصيبني الغم والإحباط. وما أزال أتذكر تفاصيل اللحظة الأخيرة كما لو أنها وقعت البارحة. كان قد اتصل بي الهاشمي لعريبي، وعلى الهاتف نطق يقول:

- هل سمعت بما حصل؟

توجست بعدما بلغتني نبرة صوته، ولذت بالصمت كمن أخرس عنوة متوقعا التالي. ولما سمعته يواصل بخيبة كبيرة:

- إنهم اغتالوا صديقنا جان سيناك. فقد وجدوه مطعونا وميتا حيث يسكن.

لم أستطع أن ألجم نفسي. وهتفت مشدوها يعتصرني الذهول والألم:

- اغتاله بني كلبون أخيرا. فعلها الأنذال به، وأعدموه.

وكأنني كنت أتوقع ما حصل معه! فلقد عاش حياته باندفاع وحماسة حتى النفس الأخير، مع ذلك يشهد كل من عرفه أنه لم يكن

حاقدا أو طامعا. وبدوري عرفته قانعا، ولا يمكن لمثله أن ينزعج منك إذا ما سلبته رغيفه، لكنه سيثور عليك إذا ما وجدك تسرق شقفة من خبز جاره.

لا شيء وليد الصدفة. وقلب المرء دليله، ومن لم يعرف الخوف البارحة لا يمكن أن يعرفه غدا. ومن ذا الذي لا يستذكر كلماته التي غرد بها من على منبر الإذاعة ذاهبا في مواجهته إلى أبعد مدى، فالحرب بالنسبة إليه لم تنته. هذا قبل أن يُقال على أثرها، ويُعفى من منصبه الآخر مستشارا في وزارة التربية.

"هذا الجسم المسكين

يريد هو الآخر ثورته التحريرية!.."

كلما حضرني هذا المقطع إلا وأكملت أقول بعده:

"وتحتاج هذه البلاد ثورة ثانية!.."

صار من المحال أن يغفروا له عقب ذلك. ولم يكن ليردعهم شيء وهم يقفون على بأسه، ويرونه يواصل جهارا معركته ضدهم. ولما تصور لهم أنهم قادرون على ضربه في العمق بإعلانهم الحرب ضد المثلية والمفاسد الأخلاقية، قال لهم صريحا: "لو خضنا في هذا المنطق إلى أبعد حد، فسنلتزم بتغيير نصف شوارع الجزائر". وأظن أنه حينها كان كمن دق آخر مسمار في نعشه.

ما معنى أن تكون إنسانا سويا، وما معنى أن تكون عبدا منحرفا؟

أظن أن الجواب في شقيه تضمنته حياة هذا الرجل، وفي مقابلها الطريقة التي عمد إليها من تولوا وضع حد لحياته. وأما هو فعاش

منزها وفيا ومخلصا لمبادئه ولإخوانه، وأما هم فعاملوه بكل ما في الإنسانية من أنانية وخساسة وجبن وتهور.

وأما المتشددون، فيمكنهم إدعاء أي شيء، ما دام أنهم لا ينظرون إلى العالم إلا من زاويتهم الضيقة وحيث هم محصورون؛ ثم كيف يكونون أبناء للإنسانية وهم يصرون على أنهم أبناء اليقين والمطلق، وتراهم مرحبين بمن سار على هديهم، ومن اختلف معهم عادوه ونادوا به إلى الجحيم وبئس المصير!

إله واحد، وجه واحد، وجهة واحدة، والبقية إلى السعير. هكذا سينتهون برمينا جميعا إلى المحرقة. وسيضحّون في صخب وهياج بنا اليوم وغدا ما دامت العدالة المهزوزة يدها تقف إلى جانبهم. وحين تصير رغبتك في أن تكون أناك تهمة، وحين تصير الجهالة قصاصا لا يمكنك أن تأمل في شيء.

كنا خذلناه نحن جميعا بعد أن ورطناه في حب هذه الرقعة، والتي تكنى بالوطن. وبعد أن زيّنا له وجهها القبيح، وأكّدنا له أنه هو أيضا ابن لها، خاتلناه، وطعناه في الظهر. وإنها لميتة بائسة، وإنها لبشعة الطريقة التي انتهى بها واحد آخر ممن أخلصوا للبلاد. وأظنها ستكون وبهذه الطريقة نفسها نهاية غيرنا، ما دامت العدالة غائبة. ولما يُغتال واحد منا، ولا نعرف قاتله، ومن اصطبغت يده بدمه، فإنه يجب أن يكون الجميع مدانا، ولا أحد بريء في هذه الحالة.

مرات أصاب بالإحباط. وحينها أجدني أتساءل، هل هذا ما سيصير إليه الحال؟ هل ما أصاب جان سيناك هو العاقبة التي تنتظرنا؟

وهل سنُطمر بدورنا أحياء، ونُغيَّب باللعنة نفسها بعدما أخذت البلاد تأكل أبناءها؟

لا أدري لم ومنذ استقلت البلد أشعر بالوحدة!.. لقد مُسخ وتغير العالم من حولي. وفي غمرة الفواجع وهي تحدث تواليا يصير أن يفقد كل شيء نكهته. وها هي انتصاراتي باتت بلا معنى، ولا تحتمل إلا الوجه الآخر، وجه الخيبة.

إنهم يدفعوننا وبنزق إلى أن نفقد الإيمان بما كان يوما لنا، ويجبروننا على أن ننشغل بما يطرحه القنوط فينا، وأن نتلهى بجبر انكساراتنا. لم يبق لنا غير أن نتوسد حرقة في القلب، ونعدّد دمعاتنا وزفراتنا وما ضاع في الطريق من أحلام وآمال. وحين أفكر في قيمة أي شيء تحقق أصاب بالإحباط، ولا ألبث أن أعيد السؤال على نفسي ألف مرّة أخرى. ما قيمة الحياة التي عشناها؟ لكن ما من جواب يتردد غير الصدى، فكأننا حيينا دون شرف، رغم أننا لبثنا الدهر كله منزّهين عن كل الشرور، طامرين رغباتنا الخاصة، وغامرين في سابع أرض ذواتنا وأنانيتنا وعجرفتنا في سبيل أن يزدهر قلب هذا البلد. ثم ما أكثر الأشياء التي لم تكن تعجبنا، وبقينا ساكتين عنها على أمل أن يونع ويزدهر جبين هذا الوطن.

لم أعتقد أني جبان ولا مرّة، ولطالما كنت سعيدا بما اعتبرته خياراتي الأصيلة، مع ذلك عانيت من سوء الفهم من إخواني الجزائريين، ومن الفرنسيين أيضا. لا يزال البعض يعاملك بتقدير، ولا يمكنني أن أنفي ذلك، لكنه إحساس فظيع أن تدري أن هناك آخرون

سواهم مشغولون بك، وأنهم يتحينون الفرص ليسجلوا عليك أدنى هفوة ليعدموك بعدها. وكثيرا ما اكتشفت أني مرصود من مخابرات الدولة، وقبلها من الأمن الفرنسي، وكأن لا أحد يريد أن يُصدِّق أني أحيا لفني. ويصرون في غي أن يروك مجرد متواطئ، مرتد، نزق، رافض تأتي من جانبه كل الشرور، ولا يمكن لذاك ائتمان جانبه؛ وإن كنت في اللحظات التي أشعر فيها بالمرارة أتمنى لو أني أقدر أن أصير كذلك، مجرد شرارة تُدمر كل ما لا يعجبها. وللأسف، فقد عشت كما يعيش خائب كبير في السياسة، على عكس أخي عمر الذي شبع سياسة، وأتخم بها حتى أكلت رأسه. وربما أمكن لذلك أن يحدث خلال مرحلة الشباب والفتوة، فأيامها امتلكتُ حماسا أكبر وإيمانا متجذرا؛ وأما الإيغال في العمر فإنه لا يمنحنا إلا فرصة مخالفة كل ما أمكننا أن نراهن عليه في السابق، كما أنه يقتل حماسنا. وإذا ما سألتني، هل لا أزال أؤمن بالتغيير، فتأكد أن جوابي هو، أي نعم، لكني مع ذلك أشعر وكأنه لم يعد لي ما أقدمه. وربما آن الأوان لأنسحب، وأترك المجال لشباب يانع ومدهش كثيرا ما أصادفه عبر دربي أن يواصل النشاط ويقرر معركته. وأخشى بصراحة إذا ما ظللت معهم وإلى جانبهم أن أعدو مجرد خشبة منخورة ومتصدعة في سفينتهم التي تبحر في العباب، وأنا في هذه الحالة سأعيقهم أكثر مما أنفعهم.

لطالما خشيت المناصب، وبقيت بعيدا عن السياسة. كما سعيت لأحافظ على حياتي واستقلاليتي، ليس لأجل شيء، وإنما لأحمي بذلك الفن الذي أخلصت له وأحببته. ومن جميل الصدف أني وفي

غمرة هذا الاهتمام والحرص لاقيت نخبة كبيرة من الفنانين التشكليين والطليعيين الحريصين على الفن ممن قاسموني نفس أفكاري وتوجهاتي. وإني لا أزال أعتز بما أسسناه معا قبل سنوات. ولعل لحركة أوشام التي انبثقت في عز المحنة التي عرفها الفن في هذه البلاد أثر بالغ في نفسي، وأنا لا أزال مدينا لكل من أسهم في نشاطاتها، وحرص على أن يكون طرفا فاعلا فيها. ولا يمكنني إلا أن أجدد شكري للجميع، وأنحني لك زميلي خدة، لأنك كنت معنا رفقة دونيه مارتيناز، وشكري مسلي، وفوج 51 الذي ضم خيرة فناني هذا الوطن، ومنهم إسياخم وكتاب وشعراء من أمثال كاتب ياسين وجان سيناك الذي غيبه الموت فجأة، وآمل أن نقدر على بعثه حيا من تحت الرماد قريبا، وجميعهم انضموا إلينا دون جهد فادح من لدننا، ودون الحاجة إلى فتوى تبيح وتحضر، لثقتهم الكبيرة فينا.

ولأني أؤمن بتواصل الأجيال، أرى أن الوقت حان لأن أتخلى عن رئاستي ودوري في حركة أوشام لشباب ناضج أثبت وجوده، وهو أكثر حنكة وشغفا وتقديرا للمسؤولية. وأنا إذا ما اضطررت إلى تزكية أحد منا فلن أجد أفضل منك عزيزي خدة، ما دمت متأكدا من حنكتك ومقدرتك على إدارة الحركة التي ولدت قبل سنوات قليلة، وعلى يقين من أن نجمها سيبزغ ويعم بشكل أعظم على يدكم. فأرجو أن تقبلوا العرض، وهو بالتأكيد في صالح أوشام والفن الذي نحبه جميعا. وأنا إذ أترك لكم كامل الحرية في التصرف واتخاذ الإجراءات والخطوات اللازمة، أظل أتوقع أن أسمع في العاجل أخبارا مطمئنة. وفي هذا الصدد

أتمنى لو أنه بمقدورنا عقد مؤتمر للحركة في وقت قريب، أو اجتماعا على مستوى الأعضاء المؤسسين لإعادة انتخاب الرئيس. وكل هذا دعما للاستمرارية، وخدمة للفن الذي نعيش كلنا لأجله.

في الأخير أجدد اعتذاري لك وللجميع ممن يراهنون على خلق الجمال ويخلصون له، مع تمنياتي لكم في ملتقاكم الوطني بالنجاح والسداد.

فنانكم محمد راسم"

الرسالة

الرابعة

اليوم، السابع عشر من فبراير، هو ذكرى زواجهما. وإن كانا يحتفلان به كل سنة فلحرص من كارين، والتي تشرع عادة في التحضير له قبل موعده بأيام قليلة، بما يجعل راسم ينتبه.

إنها طريقتها لتعلمه بأن الذكرى حلّت. وهو لطالما عاش نَسّاءً، يقابل الذكريات بلامبالاة تُغيظها، وإن لم يسمع منها ولا مرة تأنيبا أو إشارة إلى تقصير، إذ تبدو في كل الأحوال مستعدة لأن تتفهمه، وإن لا يجوز هذا المنطق متى تعلق الأمر بعيد ميلادها، لهذا-تجده بخلاف كل شيء-يحرص عليه، ويوليه الأهمية القصوى، حتى إنه يُذكّر نفسه به قبل نحو شهر كامل، وأحيانا أكثر. وخلال هذه المدّة يهتم بشراء هدية مناسبة لزوجته، حتى لا يحصل ويغفل عنها في غمرة انشغاله. وكان متى حصل عليها عزم على إخفائها وسط ركام مرسمه ليستعيدها يوم عيد الميلاد. وحدث مرّة أن أهمل ذكرى عيد ميلادها، ولاقته في مساء ذلك اليوم بمزاج عكر لم يستطع التخمين ما وراءه، ولما تفطن للأمر، وأدرك سبب ما حصل ابتسم لها في زهو وتباه مريب، ثم اندفع في اللحظة التالية نحو مرسمه، ومنه عاد بهدية قيمة وضعها بين يديها،

ثم ادعى أنه حاول ملاعبتها ومناغشتها بافتعاله النسيان، بما أدى إلى إحراجها، وقد أنّبت نفسها أمامه لسوء ظنها به.

كذلك يحدث أن توصي كارين بالتورتة يوما قبل التاريخ المحدد، ثم تطلب من راسم بأن يتكفل بإحضارها في اليوم الموالي.

تقول:

- لقد دفعت ثمنها مسبقا للحلواني، لكن لا تنسى أن تمر عليه غدا لجلبها إلى البيت.

هذا دون أن يفوتها تنبيهه أين يقع المحل، والذي لم تضطر إلى تغييره إلاَّ فيما ندر. وعادة يكون ذلك حين يقفل المحل نهائيا أو لدى اكتشافها تدنيا في مستوى الخدمات.

في هذه الليلة، وبعد عشاء هو عبارة عن مزيج واضح بين المطبخين الفرنسي والجزائري، وتكوَّن من مرق خضار وطبق من الدجاج المحمر وسلطة بالإضافة إلى نبيذ أحمر اكتفيا بالرشف منه من باب الاحتفال، حضرت التورتة. وكما فعلا في يوم زفافهما أمسكا بسكين عريضة وشقاها إلى نصفين، هذه المرّة جالسين. ثم تكفّلت زوجته باقتطاع مثلثين صغيرين وضعتهما على طبقين، ودفعت بأحدهما إليه.

لم يكن كارها للحلويات، لكن شعوره بأنه سيدس في فيه ملعقة منها دون رغبة حقيقية بدا له منفرا. ولأنه مضطر فعل ذلك على مضض. وبعد ملعقتين اعتبرهما كافيتين دفع بالطبق بعيدا. وخلال الاحتفال لم يجمعهما حديث كثير، ولا استعادة للذكريات فكأنهما

إزاء طقس يؤديانه واجبا. وما إن انتهيا منه، حتى حان موعد الفراش والنوم ما داما لم يعودا قادرين على عمل أي شيء آخر.

منذ زمن لم يعودا يفعلانها، مكتفيان بعناق بسيط، تربيتة على الظهر، اندساس في حضن الآخر أو السهر عليه عند المرض أو الحاجة. وبات الفراش مثله مثل حياتهما خاليا من المتعة، وغالبا ما ينتهيان فيه كلٌّ في جهة، فلا أهم من الاستغراق في النوم والاستسلام إلى الراحة.

أين ذهب حبهما؟ أين توارى؟

لا بد أن هذا السؤال تردد كثيرا في خاطر كل منهما. وأحيانا يصير هناك ما يوجبه، حتى إنه مرات يُطرح بصوت عال في وجه الآخر نتيجة احتدام ما، نرفزة، غضب يصعب السيطرة عليه، هذا إذا لم يتجاوز الحال حدوده القصوى ليخلص أحدهما إلى القول بأن ما عاشاه، وإذا لم يكن خداعا، ليس أكثر من توهم.

عرفها رسامة. وفي بداياتها، وجدها مفتونة بالرسم الانطباعي وخاصة بلوحات مونيه ورينوار وسيزان، كما حاولت تقليدهم. لم تثر أعمالها الأولى أي ناقد ولم تلفت انتباه أحد. ودون فرصة في عرض لوحاتها تلاشت رغبتها في أن تصير فنانة. زوجها نفسه لم يفتح أمامها أي باب ولم يسع لمساعدتها، ربما لأنه لم يقتنع بموهبتها أو بسبب طبعه وميله إلى العزلة أو لأنه يأبى أن يطلب خدمة ممن لا يحسن أداءها، وهي لم تسأله بدورها. بعدها حاولت أن تعمل مراسلة لأحدى مجلات الفن الفرنسية، وإثر مقالين اثنين نشرا لها اكتسحتها همّة كبيرة

واعتقدت أنها وجدت ضالتها، لكن لعلها أفرطت في التفاؤل حينها، فكل مقالاتها الأخرى أُغفِل نشرها، وبدا أنها لا تفهم لماذا، غير مستوعبة خصوصية الوضع الجزائري لدى الفرنسيين أنفسهم، وما كانت تفرضه السياسة بمزاجيتها ولزوجتها من اصطفاف ظاهره غير معلن. هذه السياسية نفسها أخذت تُدمّر عقلها مذ عرفتها، وهي لم تستوعب يوما ما يحصل حولها، ولم تعرف أبدا أين تضع قدمها، وليس مرد ذلك الهروب من الواقع، وإنما وجدت أن وعيها لا يتسع لكل ما يحدث في بلاد هي غير معنية بالتواجد فيها لولا أنها بلد زوجها، والذي هو بدوره مرهون أن يشتغل فيها ليكسب رزقه. وعندما لم يعد يشغلها لا الرسم ولا الكتابة اكتفت بتقليب صفحات مجلات الموضة، قبل أن تنتهي للعبث بألبوم الصور.

كان لأمور كهذه أن تقوِّض أي زيجة أخرى، إلا أنهما ظلا متماسكين. لكن لعل الصراع الذي عانوه كأسرة تجلت قسوته المفرطة بعد الاستقلال، فحينها صار يُنظر إليها على أنها أجنبية، وتأكد ذلك عقب الهجرة الكبيرة للأوروبيين من الجزائر. وما فتئت تشعر أنها في بلد غريب، لكنها أيضا لم يعد لها أهل في فرنسا حيث التقيا قبل نحو ثلاثين سنة، ولا في السويد حيث ولدت وعاشت طفولتها. ووجدت نفسها ولأوّل مرّة تفكر في الطلاق.

كثيرا ما ألحت عليها الفكرة، وهي ترى نفسها تتحول إلى مجرد ظل في حياة زوجها. وظلت تعاند معتقدة أنها قادرة على استعادة نفسها متى أرادت ذلك. إنه خيارها في كل الأحوال وسيبقى كذلك، ولطالما

آمنت به لفترة طويلة قبل أن تنساه نهائيا مؤثرة فكرة التضحية. ولم يحصل هذا إلا بعودتها إلى إيمانها القديم. وأبدت في تلك الفترة رغبتها في حضور قداس يوم الأحد، بل أكثر من ذلك فإنها واظبت عليه في حسم خارق. وما لبثا أن اعتادا صيرورة هذه الحياة وهي تسحبهما إلى منطقها، لكن ليس قبل أن يُنهكا ويخوضا في استسلام طوعي. فلا أحد يفكر في مقاومة الزمن حتى في لحظة تجنيه. إنه أكبر طاغية، ومن يعابثه لن يفوز بغير الشقاء مضاعفا.

لقد تضاجعا مرات عديدة بِنية أن يرزقا بطفل. لم يأت الطفل، ثم لم يشعرا إزاء ذلك بالحاجة الملحة. وهو يذكر كيف أعربت له أنهما غالبا يحتاجان زيارة طبيب مختص وإجراء بعض التحاليل. وأمامها أعلن أنه يمكن لهذا أن يصير في وقت لاحق، ثم لم يحن ذلك الوقت أبدا، وهما لم يعودا لطرق هذا الحديث مجددا. وربما رأى كلاهما أن في إنجاب ابن لهما ما يشكل عبئا. وحتما راودتهما مشاكل ونقاط كثيرة استعصى حلّها، وكان عليهما إذا ما رزقا بطفل أن يجابهاها. أي الأسماء سيحمل؟ أي دين سيتبنى؟ أي مدرسة سيدخل؟ وغيرها من التساؤلات التي تُلزِمهما بفتح نقاش حولها دون الانتهاء إلى ما يرضيهما معا، وإنْ هذه المرّة ليس لأجلهما، بل لأجل الطفل نفسه، إذ يجب وبطريقة ما أن يعيشا لأجله.

وكأنه خيار رباني حتى لا يخسرا بعضهما، ولا يختنقا بالمشاكل اللاحقة جراء وضع من المحال أن يحوز رضاهما معا. هذا ما حاولا إقناع نفسيهما به، وإن لم يصدقا هذه القناعة أبدا!.. ثم انتقل الموضوع

إلى حيز اللامبالاة، ككل أمورهما الأخرى. وكانت كارين تخشى أن تحرجه، وكان راسم يخشى أن يجرحها، وطويت المسألة فلم يطرقاها بعد ذلك.

لكن هل هذا ما حصل فعلا؟ وكيف انتهيا بتبني أحد الأطفال؟

جاءا بطفل من دار لرعاية الأطفال بعدما أشارت طبيبة معالجة لزوجته في حوار معها أنها يمكنها التبني، وبل كانت هي من ساعدها في حلّ كل العقبات حتى يتسنى لها ذلك؛ وأما راسم وحين حدثته كارين في الموضوع، بدا متفاجئا وغير متحمس، وإن لم يعارضها أيضا.

مضطرا اصطحبها وكما يقتضي الحال إلى دار لرعاية الأطفال حديثي الولادة تقع في نواحي بولوغين. وتلا الإمضاء على الأوراق والتعهدات خروج زوجته وهي تحتضن صبيا ببشرة بيضاء وعينين دعجاوين، يبلغ وحسب الوثائق التي منحت إليهما، سنة واحدة. وقد سبق لكارين أن جهزت للطفل غرفته الخاصة، كما اقتنت مهدا واشترت له ملابس لائقة؛ ولم يدم الأمر طويلا حتى بدأت أعباء الطفل تُضايق كليهما. وراسم نفسه لم يعد مستعدا لتعطيل كل مشاريعه لينوب عن زوجته في العناية بطفل يجده بكاءً بشكل فظيع، وبعد أن كان يكبت تذمره حدث يثور مرات، معبرا عن عدم رضاه. وخلال هذه الفترة الشاذة حصل معه ما لم يحصل طوال حياته، إذ أخذ يطيل مكوثه خارج البيت ولا يرجع إلا متأخرا، وأما إذا ما عاد فإنه يلوذ بمحترفه. وفي ليال أخرى يضطر إلى النوم فيه بعد أن يفرش لنفسه فرشة بسيطة، فالمهم ألا يقع على من يُنغص عليه ليلته، ويُطيّر النوم من عينيه.

لم يكن كارها للطفل، ولا حاقدا عليه، لكن ظهر ناقما على نفسه متخاذلا خجلا بعدما انكشفت سوأته، واكتشف معها أنه لا يتحمل أحدا، وأنه مفطور على أنانية بغيضة، حتى إن كل ما يشكل عائقا له لا يسعى إلى تحمله بقدر ما يرغب في تجاوزه، وأن هذه الأنا المضخمة والمفرطة في دناءتها واجهت صبيا صغيرا ضعيفا وبريئا بكل ما فيها من صلافة.

لكن إلى أي حد كان هذا صحيحا؟

إنه بطبعه، لا يستطيع تحمل مسؤولية نفسه فما بالك بتحمل مسؤولية شخص آخر هش ضئيل ومكَلِّف! وفكرة تربية طفل كانت تُرعبه من الأساس، وخلال التجربة ومهما حاول لم يستطع تقبلها. وقام في داخله حاجز يُشكّل الرفض، ولم يستطع التصالح لا مع نفسه ولا مع الفكرة، وإن لا يعني ذلك بالضرورة أنه لا يقدر على حبه، لكنه ظل يتصور أن طفلا مثله سيجد من سيحبه أكثر، ومن الأفضل أن يكون هذا متبنيه الجديد.

ثم هل صار وحاول حقا؟ هل يسمي تلك المرات التي بادر فيها بالاقتراب من الصبي محاولات؟ وهل ما أخذ يتجمع لديه من الرضا يعفيه من تأنيب الضمير، ويسمح له بتجاوز الشعور بالتقصير في حق الطفل، وفي حق زوجته التي ترغب في الطفل؟ ثم ماذا كان دوره؟ وهل يمكن أن يوجزه في غير التذمر والشكوى؟ أوليست كارين هي من راح يتكفل بكل أعباء الصغير، فتراها تطعمه وتنظفه وتنيّمه وتسهر عليه إذا ما مرض!.. لقد ظل متحرصا منه كما لو أنه إزاء ند له يماثله في السن

والقوّة، وما لم يفهمه، وبقيت زوجته تعيه وتستوعبه تماما، أنه لا يستطيع أن يصير أبا أبدا!

هل يكون قد أجبرها؟.. بدت كارين محبطة عندما اضطرت إلى التخلي عن الطفل، وتزامن ذلك وهي تعيش تحت وطأة سن اليأس التي أخذت تطرق بابها عنوة. ولعلها خمنت أن شغفها بالصغير وإحساسها بالأمومة قد يخففان من قسوة العالم الفج من حولها، فإذا بها-ويا لحظها-تحصد ما تمنته مقلوبا؛ وأما راسم فاعتقد أن ما تمر به كارين ليس أكثر من حالة طارئة، وأن رغبتها في التبني مجرد نزوة وطيش، وأن الأصلح لهما أن يعيشا وحيدين ما دام شاء حظهما ذلك. وظهر معاندا غير مستعد أن يتفهم سر مزاجها المتقلب ولا سر نحيبها الدائم. مع ذلك فإن تَواصُل الحياة على هذه الوتيرة زاده إرباكا، وبدل السلام شعر أنهما يدخلان نفقا ويلجان مرحلة من الخطر سترمي بثقلها عليهما، وستهدد حياتهما المشتركة.

قطعا، لقد تزعزع حبهما، خصوصا من جهة كارين، فهي لم ترضخ للأمر الواقع، وراحت تُصنِّف ما حصل وتضعه في خانة الخيانة. وإنها خيانة بشعة لن يمحوها شيء، وكلما ران إليها إلاّ ولمح نظرة الخذلان في عينيها، حتى بات يتحاشاها ويتجنب الوقوف في حضرتها. ولم تستطع لا الدموع ولا المواساة ولا حتى أي أمر آخر أن يمحو طعم المرارة وإحساسها بها. وفي ظل هذا الوضع وجد راسم نفسه عاجزا، شاعرا بالذنب العظيم ما دام يحبها. وما أخذ يحز في نفسه أنها قادرة أن تغفر له، لكنها أبدا ليس باستطاعتها أن تنسى حتى لو جثا على ركبتيه أمامها.

كانـت في الخامسـة والأربعـين عنـدما أقـدمت علـى الانتحـار. حاولت وضـع حـد لحياتها بتناولهـا جرعـات مضـاعفة مـن دواء مضـاد للاكتئاب. وبعـد عمليـة غسـل للمعـدة وأيـام في المشـفى تماثلـت إلـى الشـفاء، لكنهـا مطلقـا لـم تسـتعد نفسـها القديمـة. وتجلـى واضـحا أنها تركت جزءا منها عالقا في مكان ما، ولم يتسن لها سحبه معها.

بعـد ذلـك لـم يعـد زوجهـا يتعـرف عليهـا، فقـد مالـت إلـى العزلـة وانكفأت أكثر على نفسها. ولـم تبد له محاولاته مجدية، فلا الفُسح ولا أيامٌ قضياها في باريس وبعدها في سويسـرا بقـادرة أن تخفـف جـزءا ولـو هينا مما أَلَّم بها. واقتنع أنه عليه تركها لعالمهـا، خصوصـا وأن أي جهـد ضـد مـا لا ترغـب فيـه أخـذ يعيـدها أشـواطا إلـى الـوراء، وإلـى خيبـات وانكسارات جديدة ترمي بآثارها عليهما كليهما.

لـم يجـد مـن بـد، فـاهتم بهـا اهتمامـا مبالغـا فيـه، حتـى إنـه عطّـل كـل مشاريعه، وراح يفعـل ذلـك للمـرّة الوحيـدة في حياتـه دون نقمـة أو شـعور بالتفريط، ثم ما لبـث أن بـدأ اهتمامـه بهـا يخفـت، وإن طبـع الحـذر تعاملـه معهـا، إذ ظـل يخشـى تكـديرها أو جرحهـا أو أن يتسـبب لهـا في أي قلـق يثيرها. وفكرة الانتحـار نفسـها ودوافعهـا لـم يناقشـاها أبـدا، فكأنهمـا نسـيا الموضوع تماما، وهو نفسه اكتفـى بتلـك الإجابـات التـي قـدّمها للشـرطة، والتـي بـدورها تعهـدت بـالتكتم علـى الموضـوع. إلا إنـه وفي خضـم هـذا الوضع المربك بقي مرعوبا من الصحافة، ودام رعبه لأسابيع طويلة. وكان يخشى أن يصل خبر انتحار زوجته إليها، فتُزايد فيه إلى الحد الذي تصعب السيطرة عليه، بما يضعهما في خضم مضاعفات جديدة هما في غنى عنها.

انطوت كارين على نفسها إذن، وهي تعتقد أنها بذلك تحمي ما تبقى لها، تَرِكتُها التي عادت شغوفة بها. ورغم محاولاته الحثيثة في جرها إليه واستمالتها بالحديث إلا أنه ظل يلقى الصد من جانبها. وأقامت جدارا طويلا عازلا دونها ودون العالم، وبقيت تعتقد أنها لو حكت لأي كان ما تفكر فيه وما يخالجها من مشاعر وذكريات ستفرغها من قدسيتها، وستجعلها تُنتهك وتنتهي رفقة الأحداث العادية والمبتذلة. وانعزلت عن الجميع، وفي عزلتها بدا واضحا أنها رحلت إلى هناك، إلى ماضيها، وإلى البلدة التي عاشت فيها طفولتها. وخلال هذه الفترة تضخم اهتمامها بالموسيقى، وما فتئت تستعيد صوت فيلكس مايول، وأميل أوديفرد، وتينو روسي، وأكثر من الجميع المغنية والممثلة الأشهر جيان بشجن وتأس. وكثيرا ما كانت تعود إلى ألبوم الصور تُقلِّبه في هدوء، ثم تسرح بخيالها بعيدا، مستعيدة تفاصيل لم تنسها، لكنها لا تعني لسواها شيئا.

بقيت تكبت عنه ألمها فلا تسمح له بالظهور، وهو بدوره راح يتصرف كما الأعمى فلا يرى إلا ما تريد منه أن يراه. وجراء ذلك انخفض معدل التوتر بينهما وقلّت نسبة الشحن، وانفسح المجال للروتين فتسيد كقانون أزلي حتى بات أي أمر غير مألوف، دعوة على العشاء، حفلة، عيادة مريض، بمثابة امتحان حقيقي لشجاعتهما. وكانا ينتهيان إلى قرار واحد. البقاء في البيت. هي تأنف من مرافقته، فهو المدعو غالبا، وهو يتحجج لأجلها حتى لا يتركها وحيدة، ولا يضطر إذا ما ذهب أن يجدها في انتظاره لكن بسحنة مختلفة وبنظرات تحمل أكثر من معنى مزعج.

ظهر أن كليهما يشعر بالخيبة، فما حصل بعيد كل البعد عن أحلامهما، إذ لم يخطر لهما أبدا أن مشاعرهما ستترهل كما الجسد، وأنهما إذا ما كانا سيقفان على حقيقة البدن أمام المرآة، فلا مرايا هناك لتعكس الروح وهي تضيق وتنكمش، حتى إنهما اعتادا ألا يريا. فهل كانا مندفعين أكثر من اللازم حين تجاهلا ما يحصل مع الأزواج الآخرين؟ هل صدّقا أنهما الاستثناء، ولم ينتبها أنهما يراهنان على الجواد الخاسر، جواد كثرت كبواته على نحو مفرط وبائس؟

هذا الزمن نفسه لم يكن معنيا بإكمال دورته هنا في شقتهما دون العالم، فصار يتربص بهما خارج البيت أيضا. وراسم نفسه وبعد أن كان محور الدنيا، ولا يسعه لضيق وقته وازدحام أجندته أخذ بعض الأنفاس، لم يعد كذلك عقب التقاعد، فقد كلّفه وتيرة حياة مختلفة ممطوطة لم يعتدها، ولم يعرف كيف يتآلف معها. وظهر أن هناك ما اخترق تلك الهدنة والتي سبق وعقدها مع نفسه، فإذا به مضطر إلى إعادة حساباته كلها، لكن لا الجهد ولا الأنفاس باتا يسمحان له بالمناورة، وأما ما يقدر عليه فإنه يحصل في أضيق نطاق، حتى إنه لا يحوز رضاه كاملا.

كذلك اعتزم أن يواصل الرسم في محترفه بشكل يومي، لكنه وهو يفعل تناهى إليه أنه لا يتقدم، وفي ظل قناعة جديدة فرضت سطوتها عليه انتهى يردد بينه وبين نفسه، ليس هناك أفضل مما كان.

خلق هذا الاكتشاف لديه حالة ذهنية لم يعرف كيف يتجاوزها، وفي أعقابها راحت تنتابه مشاعر معقدة ومدمرة، وإن عرف مع مرور

الأيام كيف يتصالح معها، ليس عن رضا بل مضطرا وخاضعا ومنهزما أمامها. ولم يعد باستطاعته وهو تحت طائلة هذا الظرف الشائك والمستعصي تجاوز الرواسب التي بانت عالقة، فهي تعود إليه على فترات متباعدة، وتظهر كمرض مستعص لا يمكنه الشفاء منه، وإن صار يقدر على تهدئته ببعض العقاقير والأدوية التي يعتقد أنها ضرورية.

إلى جاكوب ستيرن
الجزائر-الأبيار

19، فبراير، 1975

"عزيزي، أكتب إليك هذه المرّة على غير رغبة كارين. إنها تنتبه إلى سهادي، ولأنها تخشى علي، تحثني على النوم، وأبدا لم تقنعها فكرة أني ألقى راحتي في الكتابة. وأنا حين أكتب إليك أتخفف مما يثقلني، وأستعيد نفسي وذاكرتي وكل تلك الأحلام التي كانت لي يوما.

أخبرتها ألا تقلق، فاللحظة التي سننام فيها إلى الأبد باتت وشيكة؛ وأما الآن فعلي ألا أنشغل إلا بهذه الحياة، وبما تبقى لي منها، عزاءً لمن لم يعش.

لم يعجبها ما تفوهت به، حتى إنها ادعت الأسف. وقبل يومين كنا قد احتفلنا بذكرى زواجنا، واليوم أسعى إلى إغضابها، بهذا المعنى خاطبتني، فتصور..!

أي مشقة مقدر لي أن ألقاها لو حصل وأصابها مكروه فوجدت نفسي دونها؟

ما أعرفه أني سأهوي، وسأجف وأذوي سريعا. ليست هشاشة مفرطة، ولك أن تصدقني، فأنا لن أتحمل لعنة كهذه. لا يمكنني العيش

وحيدا. لن يكون لي حينها ما أجابه به هذه الحياة المكلفة. ولطالما شعرت أن كارين من يحميني، حتى في تلك اللحظات التي لا أكون فيها معنيا بها، وغير مهتم إلا بممارسة نزوتي الوحيدة فألوذ بمرسمي كأقصى ما أستطيعه؛ وأما أن يفقد أحدنا الآخر في هذا العمر فلهو الامتحان الأصعب والأمر. هكذا أشعر أننا مرتبطان بمصير واحد، يحتّم علينا السير إلى نهايته يدا بيد رغم المنغصات، وإن صارت قليلة ونادرة في هذا العمر الذي بالكاد يحدث فيه شيء؛ وأما النكد فأنت تعتاده فهو مثل قهوة الصباح وملح الطعام، حتى إذا نقصت جرعاته كان لك حينها أن تنتبه أن الأمور تتجاوز ما هو مقدر لها في العادة، ولا تفتأ تشكو من ذلك.

أعتقد أني مدين لها ما دامت تحتملني بشططي كل هذه السنوات. ثم أجد نفسي أفكر في الصورة مقلوبة. ما الذي سيحصل معها لو أنا فارقتها؟

أشعر بالبرد الآن. إنه يقتحمني على غفلة مني. رجلاي مصردتان وفرائصي ترتعد. لا أعرف إذا ما يحصل هذا جراء طقس الشتاء القاسي الذي لا يزال يلفّنا ولا يريد أن ينقضي، أم من الوحشة وهي تتسرب إلي أضعافا وتلج من شقوق الذاكرة والحزن!

مع ذلك أجدني أرغب في أن أكمل رسالتي إليك هذه الليلة، وأرمي ما يغشاني من ثقل وحرائق فيها؛ ولأجل ذلك سأقطعها للحظة، ريثما أرتدي جوارب دافئة، وأزيد درجة السخان.

كنت سأدعوك إلى زيارتنا في الجزائر. أعرف أنك تحب هذا البلد وناسه مثلما تحب صاحبك راسم، ثم إنها نفس الرغبة التي راودتك منذ سنين عديدة. أذكر أنه في بار كوكو بسان جرمان، والذي انتقلت إليه

بعدما اعتزلت بار فرنسيس، ورحت تؤدي فيه وصلاتك على الساكسو في تلك الفترة أعربت لي عن هذا.

قلت لي بالحرف الواحد:

- يجب أن نترافق في أوّل فرصة. أريد أن أكتشف هذا البلد الذي تحدثني عنه دوما. ولأنه بلد الصديق الأقرب إلى القلب، يجب أن يصير بلدي أيضا.

كنتَ ما إن تنتهي من وصلتك حتى تنسحب إلى حيث أجلس أنا في آخر القاعة، وحين أسألك:

- ماذا تشرب؟

تهتف، وأنت تشرق بضحكة ساخرة وماكرة:

- ويسكي. صديقك رجل مسؤول، له أسرة وأولاد، ولهذا لا يشرب إلا الويسكي حريفا ودون إضافات.

ثم تنادي النادل. وحين يحين موعد دفع الحساب، لا تدعني أدفع ولا مرّة.

في زمن سابق كان هذا ممكنا، أن تزورني وتزور الجزائر، ولا أدري لِم لم يحصل ذلك!.. وأما الآن فقد غدت تلك البلاد عصيّة عليك، وأنت مرفوض فيها فقط لأنك ولدت يهوديا. وكم هو محزن الأمر! وكم هو بائس ومضن حين لا يمكنك أن تعود صديقك المريض وتطمئن على حاله، لأن هناك من لا يعجبهم ذلك!

مخز أيضا ما يحصل هنا، ومخز ما يحصل هناك. وحين أتذكر أنك تعتاش على الإعانة الحكومية أبتئس وأغتم. رجل مثلك وهب

حياته للفن، وكانت له فرقته الموسيقية الخاصة والتي ترحب بها كل مسارح فرنسا ودور العرض، يتنكرون له اليوم، ويركنونه على الهامش دون مزية أو اعتراف. بعض ما يقدّمونه لا يسد. وقد تخلوا عنك منذ زمن فاحترفت العزف في البارات، ممارسا متعتك خالصة ومن دون حسابات كبيرة. وما يحزنني أنك تظل وحيدا وبلا صاحب قريب يسندك وقت الحاجة. رحلت الزوجة كاري بعد زواج لم يعمر طويلا مع نهاية الأربعينات، إذا ما كنت لا أزال أذكر جيدا، باتجاه المنفى كما اعتدت أنت أن تسمي إسرائيل في أحاديثنا، ونحو وطن الأجداد والآباء كما راحت تزعم زوجتك والآخرون؛ فبعد محنة الحرب العالمية الثانية، واحتلال ألمانيا لباريس صارت الهجرة ليهود فرنسا أكثر من ضرورة، لكن الغريب أنك لم تكن منهم، والأغرب أنك لم تبال حتى في عز أزمتك، وحتى حين تخلى عنك الجميع؛ كما لم تقف حائلا بين كاري ورغبتها، وبل سمحتَ لها بأخذ الولدين معها ما دامت مصرة. وقررتَ أن تتحدى أزمتك بالصمت، فأغرقت فيه، حتى إنك لم تفتح لي قلبك، ولم تشركني من هواجسه شيئا، وكنت أعذرك حينها، ولا أزال!

وأما ولداك اللذان سحبتهما معها، وبعد أن صارا اليوم يافعين فهل يذكرانك؟ وهل لا يزالان يراسلانك من إسرائيل؟ أخبرتني مرّة، وكان ذلك لما التقينا في خريف عام 1971 عقب هزيمة العرب النكراء، وقبل حرب 1973، أن ابنك الأكبر يراسلك ويحثك على الهجرة، لكنك لا تستطيع أن تستجيب لرغبته، فليس لك في ذلك الوطن شيء.

تصر وكما قلت أن تتشبت بأرضك، والبلد الذي ولدت فيه، رغم الصعاب والمعاناة. وفرنسا، وأنت تعلم أكثر مني، لم تعد اليوم تسع الجميع. فأي طوق يلف خناقك عزيزي، وماذا بقي من طموح وأحلام الأمس؟ وكأنهم لا يريدونك إلا سجينا في مجالك، مختنقا حتى وأنت تنشد حريتك كعزاء وحيد!

لا يسعني في هذا الظرف إلا أن أرفع لك القبعة، وأنحني لقلبك الطيب المفطور والمتخم بالخيبات. لقلب يظل يقاوم ببأس ما بقي فيه نفس وعرق ينبض، رافضا أن ينتهي كما يراهن عليه أولئك الذين يتكالبون على نهش لحمه حيا، ويشتهي حتى في أرذل العمر مصيرا مختلفا يعتقد أنه يستحقه، ولا يفهم كيف لا يناله!

ولعلنا بتنا اليوم نقف على المنعرج، لكننا لا ننتبه، أو لا نريد أن ننتبه رغم إشارات الخطر، وما يجري معي أنا أيضا يشعرني بالبؤس، ويدفعني إلى الجنون؛ وحادثة البارحة نفسها لم تكن الفيصل، لكنها حملت لي الكثير من الرعب والتوتر، وكلما استعدتها أصابني الغم والإحباط.

أشعر بأني ملاحق، وبأن هناك من يترصدني. أكاد أميزه وأتعرف عليه. تنبهت للأمر هذه المرّة خلال عودتي من المقهى. حاولت أن ألتفت أكثر من مرّة لأكتشفه، لكني خشيت أن أثير ردودا عنيفة لديه، خصوصا وأن الشارع كان في ذلك الوقت مقفرا من الناس، وكأن الظلمة التي انسحبت على المدينة أبت إلا أن تتواطأ معه وتتستر عليه، حتى توقعت أني هالك لا محالة.

زادت وتيرة خطواتي، وزادت معها دقات نبضي، وأخذ قلبي يخفق بعنف، وبدأت أتفصد عرقا، وخشيت أن أنتهي مختنقا قبل أن أصل إلى البيت، لكني ثابرت بهمّة شاب عشريني، مؤكدا لنفسي، أنه لا يمكنني التخاذل، وإلا فسيُقضى علي. ورحت أتمسك بالحياة التي لطالما أعلنت أني أحتقرها، غير راغب في الموت. ولم أعرف الشعور بالأمن إلا حين دخلت البيت. وأمام هلع كارين دبَّ في أوصالي التردد، حتى إني تساءلت هل أنا متأكد من أن هناك من كان يتبعني؟ واضطررت أن أخفي الحادثة عنها. وجابهت سؤالها، ماذا هناك؟ بالقول إني شعرت بالإجهاد فجأة. ولما خلدتُ إلى النوم، وعلى السرير ظللت أستعيد تلك الدقائق التي مررت بها لحظة بلحظة، وأما عقلي فلم يتوقف عن السؤال، من يكون هذا؟ وما الذي يبتغيه مني؟ ولأنه صعُب علي إقصاء هواجسي، لم يغمض لي جفن، أو بالكاد نمت لساعات قليلة نوما متململا.

لا أعرف كيف أتأكد من أني ملاحق، كما لا أعرف كيف أتجاوز الحادثة، وألغيها من ذهني. والشك وحده كفيل بأن يمنحني هذه المرارة، والتي لن أعرف من خلالها كيف أستطعم الحياة. ولا تفتأ أن تُوّلد الأسئلة أسئلة أخرى، لألقاني تحت رحمتها. من يكونون؟ وماذا يريدون مني؟ وإن أحاول في كل حين أن أستعيد نفسي مكذبا ما شعرت به، مؤكدا أنها مجرد تهيؤات مفرطة. وينتابني على أثر ذلك التوجس والظن، لكنهما من المحال أن يُعدما الجزء الذي يسكنني، وبل أراهما يضاعفانه مرات عديدة، حتى يثقل علي كل شيء وأعاف من فرط ما أنا فيه لحظتي هذه

ومعها الحياة، ما دمت لا أعرف سبيلا أقمع به هواجسي وأفنيها.

أرى أنه لا عاداتهم ولا مناوراتهم تتبدل. يلجؤون إلى الأساليب نفسها. يتبعون خطاك، ويترددون على الأماكن التي تألف زيارتها، ثم ينتهون إلى كتابة تقاريرهم بأمانة كثيرا ما تورطك، ما داموا يعتقدون أن ذلك هو دورهم وما يريده منهم أولئك الذين نصّبوهم خلفك. وإذا ما كنتَ مسجلا خطرا سيضعون لك الميكروفونات في جميع زوايا بيتك وعملك، وسيسجلون ويتنصتون على كل آهة تبدر منك، ولن يبخلوا عليك إذا ما واجهوك بأن يسمعوك بعضها، معلقين ومصدرين أحكامهم التي تدينك في مجمل الأحوال.

لم أستطع أن أفاتح كارين وأخبرها بأني مراقب. أخشى عليها. سيجن جنونها حتما لو عرفت، وسيقضي الخبر عليها كما تفعل الصاعقة، لكن هل علي أن أفاتح أصدقائي في المقهى؟.. قطعا، لا. هذا ما انتهيت إليه أيضا، بعدما صرت أخشاهم، وأكثر حذرا معهم. هكذا ينجحون في التأليب بين الإخوة. تخبرني عاطفتي أنه من المحال أن يكون هناك واش بينهم، وعلي أن أثق بهم ثقة عمياء، وإلا لِم هم أصدقاء لي أصلا؟ وأما عقلي فيؤنبني على براءتي وبلادتي، ويدفعني إلى المزيد من الحرص. ومن إفراطي فيه أفكر أن أخلف موعدي القادم معهم، أو ربما أنا مضطر للذهاب حتى لا ألفت الانتباه، فأبدو كما لو أني أخشى شيئا وأحاول أن أداريه.

لقد جعلوني مشتتا. وإنهم بارعون في فعل ذلك بأي امرئ بشكل يفوق الوصف. يجعلون الخوف يتمكن منك حتى تبدأ تخشى ظلك

وتفتش في نفسك عن ذنوب وأفعال قمت بها، ويمكن أن تكون أغفلتها ونسيتها. تختلق اتهامات تورط بها نفسك ثم تلوذ بالدفاع عنها مبتدعا حججا وركاما كبيرا من الكلمات تُغيّره باستمرار ما دمت غير راض عما توردە في التعبير عن براءتك، ناشدا الأنسب والأكثر أثرا. تتوق إلى بعض الطمأنينة، ولما تحصل عليها تعود كرة أخرى على البدء. تحصي تهما جديدة، وتأخذ بلا تهاون في الدفاع عن نفسك، وفي الأخير تنتهي خائرا ومجهدا.

رغم ذلك، فما أنا متأكد منه، أنهم ساعة يعزمون على مواجهتي فإنهم سيبرعون في استخراج من تحت جلدي ما أنا جاهل به، وحينها سواء لديهم اعترفت أم لم أعترف، لأنهم سيكونون قد قرروا ما يرونه بشأني، وسيشيرون إلي بأني متهم ومدان. لكن لطفا، هل هذا ما يعتقدونه؟ وهل يمكن لرجل يعيش آخر أيامه أن يزعجهم ويسوؤهم، وأن يرهبهم؟

لم أعد يافعا، ثم ليس لمن هو في مثل سني أن يصنع ثورة أو يتآمر ضدهم، فما الذي يخافونه ويخشونه؟ بالله عليهم، ليكفوا عن العبث، وليدعونني أحيا ما تبقى لي من العمر بسلام!

مع ذلك، لا أظنهم يسمعون. لن يكلفوا خاطرهم لأن ينصتوا إلي، ما داموا قد اعتادوا على رهن مصائرنا، والمقامرة بها تزجية للوقت وتسلية.

ما أتمناه أن أستيقظ في الغد، وأكتشف أن ما جرى معي، وأسرد بعضه الآن عليك مجرد أضغاث أحلام؛ وإلا فلن أهنأ أبدا، بعدما

عرفوا كيف يزرعون الخوف بداخلي، وهم لطالما برعوا في ذلك!

هـل يكفـي أن أداوي حـالي بالتظـاهر بأنـه لا يحصـل شـيء، وباللامبالاة، تجاوزا لشعوري بالقلق والخوف، مع أنه حين لا تفعل شيئا تكون كمن يموت أيضا؟

آه، كم ستكون فترة نقاهتي صعبة!

وأنا في كل الأحوال لا أرغب إلا في استعادة صحتي، والتخفف من جزعي، ومن ثقل الرتابة التي تحوطني باسم التعافي. حينها يمكنني أن أعود إلى الرسم، فلقد اكتشفت أني لا أتقن شيئا سواه، وهو مهربي في نفس الوقت. ومناي لو أستطيع فأفعل ذلك من جديد. هناك أفكار يضج بها عقلي، وهناك تصاميم ورؤى يزدحم بها خيالي، مع ذلك أعرف أني لن أنجح. سيخونني التركيز، والضغط، ويدي التي باتت ترتعش أكثر من أي يوم مضى.

ولأني بالكاد أجد ما أفعله هذه الأيام، عكفت على القراءة. هناك بعض الروايات الجميلة التي لم أجد لها الوقت الكافي، وظللت أؤجلها دون داع، ومنها رواية "الموت السعيد" لألبير كامو، وقد نشرت بعد أكثر من عشر سنوات على وفاة كاتبها، كما هناك رواية "كوكب القردة" لبيير بول استفزني عنوانها، ولعلي لأوّل مرّة أقرأ عملا في الخيال العلمي، ولم يعجبني أن أجدها قصة حرب بين البشر والقردة، فكأننا لا نفلح إلا في إنتاج الكراهية والعداء والشحن حتى ضد الحيوانات البريئة؛ وأما ما راقني حقا فرواية تحمل عنوان "الإنكار" نُشرت عندكم في فرنسا قبل سنتين أو ثلاث، وهي لكاتب جزائري شاب اسمه رشيد

بوجدرة. ما يصنعه مثير وخلاق. إنه لا يشبه جيلنا أبدا، وصدقا أنا أتنبأ له بمستقبل مزدهر ما دام يملك كل هذا القدر من الجرأة والفحولة.

كما أني عدت أقرأ في الفن أيضا، وحاليا أنا بصدد قراءة "موسوعة الفن الحديث" للروسي ألكسندر دوفيتش. وغير تقليب الجرائد إضافة إلى ذلك لا أملك ما أفعله. وما أتمناه ألا يكون هناك ما يدفعني إلى الكتابة مجددا، فلقد استنفدت كاملا، وعدا ما أراسلك به ليس لدي ما أرغب في قوله، وعليهم بدلا من ذلك أن يخترعوا لنا نحن العجزة ما يسلينا ويخفف عنا رتابة الأيام، فما أكرهه أن أمضي ما تبقى لي من أيام في الشكوى والجزع والأنين.

ربما علي أن أنهي هذه الرسالة الآن. ويجب أن أذكرك أني أنتظر أخبارك على لهفة، وأريد أن أطمئن عليك، فلا تتأخر في الرد.

صديقك المخلص، محمد راسم"

الرسالة

الخامسة

يذرع شقته طولا وعرضا. يشعر بأنه مثقل ومهزوم. لم يزدد وزنه أكيد، لكنه واهن بشكل مريع، وبالكاد يمكن لقدميه أن تحملاه. ولما كان الوقت يمر بطيئا عنّت على باله لوحة الزمن لسلفادور دالي، وفي أثرها تداعت أمامه لوحات إدفارد مونش المغرقة في سوداويتها حتى لم يعد أمامه من منفذ.

يزعجه أنه ليس بمقدوره تشكيل أي عمل جديد. وها هو يستعيد من مرسمه أكثر من لوحة ظلت معلقة، ولم يستطع بعد أن فقد الرغبة فيها أن ينهيها. وكان إذا ما بدّد ذلك الالتحام وتلك العلاقة الوشجية التي تنشأ بينه وبين ما هو بصدد رسمه أوّل مرّة يتخلى عنه ويهمله. وخلال عودته إلى بعضها راح يسعى خلف تلك الحالات التي استشعرها في تماسه الأول معها، وبدا ذلك صعب المنال إن لم يكن مستحيلا، مع ذلك بقي يصر ويعاند. وراهن على خلق معادل لها كما حاول استيلاد مشاعر مشابهة، وبرغم أنه لم يفته زيفها إلا أنه اضطر إلى أن يصدق ما راح يقبض عليه حتى يستطيع أن يستمر ويتقدم كما لو أنه بصدد إنجاز ما.

يجانبه الرضا فيما يصنعه، وهو نفسه يعي أنه يقدم مسوخا ويحرقُ أعمالا له. وقريبا سينتهي إلى إتلاف كل ما لديه، مع ذلك يحاول أن يغالب مشاعر الحسرة على ما أخذ يُضيّعه من لوحات، فالمهم في وضعه الحرج ذاك أن ينفذ من مأزقه مهما كان الثمن. ثم إن في محاولاته تلك إشغالا لنفسه وإعادة إحياء لصلته بالرسم الذي قاطعه مجبرا. وبرأيه لا يمكنه تجاوز لوحة متعسرة إلا بلوحة ثانية تستدعيه، فإن لم يحصل ذلك فليراهن على لوحة ثالثة ولو من باب التجاوز، وإن لا يعني هذا المنطق أبدا أنه سيعثر على ما يريد؛ مع ذلك فإن لمن يتحلى بالإيمان والعزيمة، ويراهن على الاستمرارية أن يصادف لا محالة نجاحا ما، وحين يدرك أنه صار بين يديه أخيرا، عليه أن يتمسك به حتى النهاية.

ولقد ظلت هذه المحاولات في تكرارها. الانتقال من لوحة إلى أخرى دون التوصل إلى ما يرضيه، تصيبه بالإجهاد. وفي حالات سابقة كان يمكنه أن يعالج هذا الاحتدام بجرعات من الشراب يسمح له بتجاوز الضغط فيستعيد نفسه، وأما الآن فلا مجال أمامه ليتخفف من حدّة ما يلاقيه، ولهذا تجده يذرع الشقة بالطول والعرض كعسكري في نوبة حراسة لينتهي بالانسحاب إلى الشرفة.

يجد الجو في الخارج مشرقا. ولأنه تخفف من برودته، صار محتملا بالنسبة إلى عجوز مثله. وما لبث أن تناسى ما كان فيه من صراع، وانتقل إلى عالم آخر لا يزال يشحنه، وإن بهواجس مختلفة تظل محببة لديه، ما دام أنها لا تتسبب له في ذلك القنوط الذي ما برح يغشاه كلما ألفى نفسه في الداخل.

يعتدل مزاجه على نحو مدهش، وتتلبسه اللهفة، وهو ينظر صوب الشرفة التي اعتادت الشابة أن تطل منها. وفي انتظارها يحاول أن يشغل نفسه، فيجلس على كرسيه كالعادة فاردا جريدته أمامه، ومحاولا النظر إلى ما تضمنته من أخبار، وإن بالكاد يقدر على متابعة جملة كاملة مما يقرأ، فكمّ التحفز الذي لا يدري كيف يعالجه يمنعه من متابعة القراءة والتركيز فيها، إذ لا يني يرفع نظره باتجاه الشرفة بين كل ثانية وأخرى تعقبها. وفي النهاية يكتفي بالتظاهر، يخدع نفسه، ويوهم كارين إذا ما بادرت بالظهور أمامه بأنه منشغل بما لديه، فتكف عن متابعته وترصده. وهو ليس يخشى شيئا في جلسته غير أن تضبطه متلبسا، ودون أن يمنحه حظه فرصة الانتباه لها، كما يظل متهيبا أن تلمحه الخادمة من طرف خفي، وتدرك ما هو بصدده، ثم تسر لزوجته، ومن عادة النساء تبادل الأسرار والنميمة، حتى إنهن كثيرا ما يبالغن في ذلك، متنكرات لتلك الحدود التي يفرضها وضع الخادم والسيد، خصوصا وأن هذه الحدود، والتي تلقى المراعاة في بلدان العالم بأسرها، لا تجد لها مكانا هنا في مدينته وفي هذا البلد، فترى خادمات المنازل يفزن بفرصتهن في أن يصبحن فردا من العائلة، ثم إنهن لن يقبلن بأن يعاملن بأقل من ذلك مهما حصل.

تتعطل بهجته حين لا يظهر للشابة أثر، مع ذلك لا يبالي. يواصل انتظارها، وكأن لا شيء آخر له ليفعله، وكأنه يصحو كل صباح لأجلها!.. لقد أمكن لها أن تمنح يومياته شبه الفارغة المعنى. وإنها لا تفتأ تسحبه من عالم البلادة والرتابة، وتنقذ روحه الهشة من الضمور

بما تمنحه له من شغف وتوق. وهو إذ يتابعها كلما أطلت يقع ضحية سحرها، كذلك يحصل هذا لما يحاول أن يكتشف ما يجري في غرفتها، وحتى عندما تمضي بعيدا وتختفي عن الأنظار، يجد في جلسته ما يغنيه.

وفي انتظارها راح يمعن في كل ما لم يكن يمعن فيه من قبل. هكذا تجده وبمزاج مختلف يتحسس البرد وهو يتسرب إليه من أخمص قدميه، أو وهو يستشعر مسام جلده تنضح بالعرق. يلفت انتباهه أيضا لغط الشارع، فيتابع ضوضاءه، ويراقب أفوله من العابرين والسابلة، كذلك يمكنه أن ينصت بنصف انتباه للتلفزيون يتداعى صوته من الصالون، وأما مشاعره التي عاد يلقى بها زوجته كلما دبّت أمامه في الشرفة فمختلفة، وتشعره بإحراج يتفنن في مداراته. وإنَّ هذا لأفضل بكثير من الإمعان في سماء لا يمكنها إلا أن تكون هي نفسها كل يوم، وفضاء بالكاد يثير فيه شيئا. ويمكن القول بأنه رهنُ جلسات لا خمول فيها، وكل ما يحصل خلالها غير رتيب وغير اعتيادي، بما يمنحه نشوة المغامرة، نشوة خاصة افتقدها منذ دهر، وهو إذ يعود فيكتشفها من جديد يشعر بأنه في حال أفضل، وكمن عاد إلى الشباب من جديد.

مع ذلك ها هي الحسرة تنتابه. والظاهر أن الشابة تخلفت عن شرفتها منذ التقى بها أمام الكشك الذي اعتاد أن يبتاع جرائده منه كل صباح، في صدفة غريبة لا يفهمها!

لا يزال يحفظ تفاصيل اللقاء، وكلما استعاده إلا وقلّب فيه، مستذكرا الموقف والاختلاجات التي صاحبته.

يومها انتبه إلى شابة تقف أمامه متوهجة ومتأنقة. وما لم يتوقعه أن تبتسم له، وترحب به في اندفاع خالجه على أثره ارتباك بيّن:

- أنا جارتك في العمارة المقابلة. هل عرفتني؟

حاول أن يتماسك وهو يستجدي جرأته حتى لا يبدو أمامها متخاذلا.

- أكيد، إذ لا يمكنني أن أغفل عن حُسن ليس مثله اثنان.

ابتسمت للإطراء اللذيذ، ولم تبد متحرجة. وواصلت بعد لحظة صمت قصيرة تخبره بكل ما تعرفه عنه. والظاهر أن ما لديها من معلومات ليس هينا بالمرّة، وما أوردته لا يمكن أن يتاح إلا لعارف. وخمن أنها لا بد تهتم للفن لتعرف كل هذا القدر عنه.

سألها مستفهما، ومغالبا شعوره بالحيرة:

- هل أنت فنانة؟

وردت في افتتان:

- كان الرسم حلم طفولتي، وليس لي من هواية اليوم غير القراءة.

جاء حديثهما باللغة الفرنسية، مع ذلك تأكد له أنها ابنة البلد. وانشغلت عنه في اللحظة التالية بحمل نسخة من جريدتها، وبالتوجه إلى البائع تنقده ثمنها. ووجدها فرصة سانحة ليتأملها على مهل.

إنها تلبس تنورة بألوان غامقة تصل إلى مستوى الركبتين مع بوت جلدي لامع طويل الرقبة، كما ترتدي قميصا رمادي اللون له عنق، تضع فوقه مونطو أسود فاردة جناحيه. وتسّمر مكانه كمن ينتظر، وما

هي إلا هنيهة حتى عادت إليه. ونظر إليها هذه المرّة مليا، وإذا به لا يقع في عينيها على الإعجاب وحده، وبات متأكدا أنه إزاء شابة واثقة من نفسها، صعبة المراس، وأعمق مما تبدو عليه.

أعلنت تفاجئه:

- أرغب بشدّة في رؤية أعمالك، وكنت سأرحب لو دعوتني في وقت لاحق إلى شقتك.

هي لا بد تعرف بالضبط ما تريده منه؛ فماذا يريد هو؟ وهالته جرأتها، حتى إنه تساءل من الصياد، ومن الطريدة؟

إنها على عكسه تقدح بالحيوية، وأما هو فلم يعد بمقدوره في هذه السن مجارات اندفاع وحماسة الشباب، مع ذلك لا يفكر في الاستسلام. عليه أن يسايرها، ولا بد أن لها خطتها.

ناور بما هو متاح له، متأملا في الفرصة الجديدة التي تعده بها. فرصة عليه أن يستعد لها بحذر حتى لا تضيع منه. وردّ عليها وكله حرص:

- مرحبا بك في أي وقت تشائين. وتأكدي بأنك ستجدين بابي مفتوحا أمامك دائما.

واصلت التصرف بإيقاع مضبوط. لا ترغب في أن تبدو مفضوحة لديه، كما لا يبدو أنها مستعجلة، مع ذلك ها هي تنطق في سرور لا يخفى عليه:

- ممنونة لهذه الهِبة العظيمة، وتوقع أن ذلك سيحصل في أقرب فرصة.

ثم انسحبت..

كانا لا يزالان أمام الكشك. ولم يكن بالإمكان تجاوز حواشيه معا، كما قد يبدو الأمر مثيرا للريبة لمن يلاحظها معا. والغريب أنه منذ ذلك اللقاء في كشك الجرائد وهو ينتظرها. ولم يظهر لها أثر، فكأنها تمعن في التخفي وتحرص عليه!

وتملكه الجزع وغلبه القنوط ما دام لا يستوعب ما يحصل. فهو لا يفهم. وكمن يفوته شيء لم يعد يدري كيف يتصرف. ولم يجد من بد فرابط في الشرفة صباح مساء كحل أخير.

تحتدم الوساوس، فيضج بها عقله. ويتساءل، هل لا زالت تعود فتطل من شرفتها كما كانت تفعل من قبل، أم أنها تجاوزت هذه العادة لسبب يجهله؟ وإذا ما هي مشغولة هذه الأيام أو على سفر، فهل ستظهر مجددا؟.. ثم إنها وعدته بالزيارة، وهذا دليل على أنها ستعود، وعليه ألا يكون لجوجا كمن لا صبر له. ولكن ماذا لو أنها قالت ما قالته لمجرد الحديث، ولخاطر بلا معنى مرّ بذهنها؟ ماذا لو أنها لم تعد تهتم له، أو أنها تمعن في تجنبه بدافع ما يفوته؟.. وغالبا هي تدري بمواعيده في الشرفة. مواعيد ثابتة لا يكاد يخرقها بأي حال من الأحوال. ويُفكر أن عليه البحث عنها بنفسه. أن يطرق العمارة أين تقطن، ويتوجه إلى شقتها ويسأل عنها. لكن ماذا سيقول حينها لمن يفتح له الباب؟ يحتاج إلى جرأة لا يحوزها. يحتاج إلى الجنون نفسه. وإنه متى وصل إلى هذه الحالة يخوض في نفي تعلقه بها، مؤكدا أنه اعتاد وجودها وما كان ليغفل عنه، وأن مشكلته الأكبر تظل في هذا الفراغ القاتل، وعليه أن يجد ما يشغل به نفسه كتعويض.

ويحدث أن ينسى نفسه في غمرة الأسئلة. وتلوح أسئلة أخرى جديدة، فيلوكها باقي الوقت. يسأل، من تكون هذه الشابة؟ ما هو اسمها؟ ماذا تعمل؟ ماذا تحب، وماذا تكره؟ هل لديها حبيب؟ أي موسيقى تسمع؟ ماذا يستهويها؟ وما الذي لا تحبذه؟.. وكأنها سديم أو سراب، فكل ما يحيطها مبهم لديه. وتمنى لو أن له علاقة بجيرانه، ومن حسنات الجيرة أنه يمكنك أن تلجأ إليهم وقت الحاجة. تفتح حديثا عابرا معهم، وعندما تجد الفرصة مناسبة تطرق موضوعك الذي ترغب فيه. هكذا يتسنى له السؤال عن الشقة التي لاح أن هناك من شغلها بعد عهد من الهجران، وسيرضى بأي كلام يسمعه، فهو سيتيح له حتما أن يعرف أي شيء بخصوصها.

وعندما يدب فيه الخور ويغلبه الشك، تتمكن منه وساوسه القديمة. وعَودا على بدءٍ يتساءل، هل هي حقيقية، ومن لحم ودم؟ وهل هو متأكد من أنه كان يراها فعلا؟ ثم ماذا عن لقائهما أمام الكشك، وحديثهما معا؟.. ويستعيد قصصا عديدة عن أشخاص عرفهم أو سمع بحكاياتهم وقد عانوا الفصام، ولم يستطيعوا العودة أبدا إلى حالتهم الطبيعية، ولم يستطيعوا تجاوز المأزق والعالم الذي قضوا ضحية له.

يلتهب وضعه أكثر، فكأنه يقتعد نارا حامية.

هذا الاهتمام الزائد والمفضوح بالفتاة في أي خانة يضعه؟

ثمة أمر واحد مؤكد. إنه لا يستطيع تجاوزها حتى وإن رغب في ذلك. ولم يعرف إذا ما عليه أن يفرح أو يبتئس لأمر كهذا!

ما يفهمه أنه في هذا العالم كثيرا ما تحدث مصادفات غير محسوبة واعتباطية. تحصل لأنها تحصل، وفي الساعة التالية تُنسى حتى من دون أن تترك أي أثر لها في الذاكرة. فهل يمكنه أن يصنف ظهور الفتاة فجأة، ثم اختفاءها في هذه الخانة؟ وما فتئ يرى أنه، وإن لم يكن بمقدوره تجاهلها في الساعة التالية، ولا في اليوم اللاحق، إلا أنه سينتهي حتما إلى نسيانها في غمرة هذه الحياة نفسها، والتي قد يعود فلا يذكر الإنسان فيها حتى اسمه.

لكن هل حقا هو قادر على تجاهلها؟.. يقع ضحية الشك. ومن فرط هواجسه، وتعلقه الزائد بها ينتهي إلى أنه ليس بمتناوله شيء. ويبدو مستسلما، خانعا، كمن لا حول له ولا قوة. ليس للأمر علاقة بزر يكبس عليه المرء فيتم النسيان. ولا يمكن حتى لمن يمتلك العزم والتعويل أن يفوز بهذا بسهولة. وراسم ليس له ما يشغله، خصوصا بعد مرضه، وارتهانه للعلاج، وما تتطلبه حالته من راحة. وحتى انصرافه إلى القراءة لم يكن إلا لشغل الوقت، وتلهية لا غرض منها إلا انتظارها؛ وإذا ما هو يرغب حقا في تجاوزها عليه أن يذهب بعيدا، وفي اتجاه لا تكون فيه الشابة متوفرة البتة. والسفر يبدو حلا معقولا لمن يستطيعه، وإذا ما غاب لفترة مناسبة ثم تسنت له العودة فسينظر إلى ما كان ببعض الفتور، وباهتمام أقل بكثير من الذي يوليه له الآن.

ودأب يفكر بعزل نفسه. أن يبتعد عن الشرفة. أن يستدعي جهدا، ويثابر ليفعل ذلك. وقرار كهذا يحتاج إلى كثير من الجرأة. ورأى كبداية أن يُباشر، وكالأيام الخوالي، بالتعريج على المقهى كل مساء بدل مرة

واحدة أو مرتين في الأسبوع، مغيرا عاداته، فلا يمكنه القضاء على عـادة تأصلت إلا بعادة أخرى بديلـة، وإن يظـل يـأنف مـن التغييـر في رزنامتـه، لكنه هذه المرّة يجد نفسه مضطرا.

إلى جاكوب ستيرن
الجزائر-الأبيار

03، مارس، 1975

"عزيزي جاكوب، أكتب إليك هذه المرّة مندفعا وتحت تأثير الحاجة. حاجتي إلى أن أحدث أحدا ما، وليس أي أحد طبعا، وفي كل الحالات لا يمكنني أن أعثر إلا عليك أنت.

في الآونة الأخيرة، ونتيجة قصة حصلت معي أو لا تزال تحصل، ما دمت لم أنته إلى استيعابها تماما، لم أستطع أن أحافظ على رباطة جأشي. ولأني أخشى من انفجار وشيك لجأت إليك علّك تسمعني.

أحتاج إلى من أثق فيه، ولا أعني هنا، أني أسعى وراء شخص يكتم ما سأخبره به ويطويه كسرّ، بل إلى شخص هو أبعد ما يكون وصيا أخلاقيا فيسمعني مواعظ أنا لا أحتاجها، وكثيرا ما آنف منها وأتجاهلها.

إني بحاجة إلى من يفهمني، فلا يعايرني بما سأرويه له، ولا يتفوه أمامي بكلمات هي تعبير عن حكم متسرع، كأن يقول إن ما بي مجرد رغبة في التلاهي، أو هو طيش على كبر، أو نزوة يدفعني إليها العجز والفراغ، واللذان من الممكن أنهما يرميان بثقلهما في الموضوع، على أنه من المستحيل أن يصيرا خلاصته وزبدة ما فيه.

أبحث أيضا عن صديق لا يكبّلني خجلي المفرط أمامه، ويكون يعرفني كما أعرفه، بما يجعلني أتوقع مساندته لي ولو بالصمت حين لا يستطيع أكثر، ولا يجد ما يقوله لي.

وأما القصة فقد حصلت معي بالصدفة، ولا أجمل من صدفة تعثر فيها على نفسك من جديد.

قبل أيام تغير الكثير معي، ووقع ذلك لما رحت أتابع جارة يظهر أنها سكنت حديثا في الشقة المقابلة لشقتي. كلما عرّجتْ على بلكونها أشعر بنبض الشباب يغمرني، وبأن هناك من ينتزعني من مكاني، حتى أكاد أقف تهليلا لها لولا الخجل. ولا أفهم إذا ما أنا أطلبها كامرأة، أنثى جميلة أتوق إليها، أم أنشد تلك الأحاسيس التي تبثها في، فأستعيد في أعقابها شيئا قديما سُرق مني أو قطعة فقدتها من لحمي؟

ليست في مثل سني طبعا، وبل إنها أصغر كثيرا. أتوقع أنها تخطو نحو الثلاثين من عمرها، بهية ومشرقة ولا يكاد يشبهها شيء. ومع ذلك فإن ما يشدني إليها هو تلك النظرة التي تستقبل بها عالمها، فكلما وقفتُ عليها ووجدتها مشغولة ومشدودة بالنظر أمامها لا تريم، وكأن العالم من حولها لا يعنيها، أتصور أنها تمعن النظر إلى داخلها، وإلى أشياء بعينها تغزوها وتغنيها. ولا أكتمك أني صرت أحرص وأداوم الجلوس في شرفتي لأجلها. أنتظر متى تهل، ونشوة غامرة تصيبني متى أطلت، حتى أتمنى لو يستمر هذا الحال إلى الأبد، فإذا ما تأخرت أشعر كما لو أني أقف على حجارة انتزعت من الجحيم، تلسع قدماي وتحرقني، ولا أفتأ أتساءل كمن لم يعد يطيق صبرا، أين غابت؟ ولماذا اختفت؟ وماذا

تفعل في هذا الحين بالضرورة؟ وكأنه لا يجب أن يشغلها سواي!

ليس جنونا ما بي، ولا جموح شيخ عجوز. وقد تخمد مع السن رغبات المرء، لكن وحدها رغبة الاكتشاف ستصمد، وهي الرغبة نفسها التي تبقيني معلقا في شرفتي اليوم كله مغلفة بالإحساس بالخطر، وبمتعة غريبة لها مذاق ونكهة الماضي. ولأنه سبق لي وأن تعرفت على هذا الشغف نفسه أجدني أحن إليه، وأعود فأطلبه لا لغاية إلا لذاته، ما دمت مقتنعا أنه لا شهوة هناك حين يبلغ المرء سن الثمانين.

ثم ماذا لو علمت كارين بأن صحتي ومزاجي محكومان بالتأرجح، فأتحسن متى أطلت الشابة، وأسير إلى التدهور متى عزفت عن الخروج وغابت؟ وماذا لو علمت الشابة نفسها بخطورة وضعي، فهل ستفكر في التكفير عن ذنبها بإطالة بقائها في شرفتها حتى أشبعها، وإن كان من المحال أن يشبع عاشق أو يرتوي؟

لا أريد أكثر من أن تتجلى أمامي كل صباح أو مساء. هكذا يصبح ليومي معنى، ولمضي الوقت جدوى، وللأيام في تواليها أمل.

ولعلني فيما حصل معي أتوق إلى تلك اللهفة القديمة، وأحن إلى ما كان يصيبني في حضرة الجمال حين يأسرني، فأغذوا أدور في فلكه تائها وخاضعا، وفي شبابي كثيرا ما استوقفتني السيقان العارية، والخصور النحيفة المنحوتة، والقامات الطويلة الممشوقة، والنهود العامرة الوافرة، وحجم العيون ولونها، وتشكيلات الشعر المصفف بعناية فائقة، والأثواب من تنانير قصيرة وسراويل ضيقة وقمصان شفافة تكاد تكشف عما تحتها من سحر، وإكسسوارات الزينة ومصوغات من

حلق وخواتم وسلاسل ذهبية وفضية ونحاسية ومن خيوط وجلد وغيرها، وفي غمرة الرغبة الجلية أعمد إلى كبح شهوتي كلما سعت إلى الانفلات من طوقي، فأحكم عليها السيطرة آسرا إياها، وإن استدعى مني ذلك أن أكز على نواجذي، وأعتصر قبضتي.

لم أكن أقع تحت طائلة الاشتهاء، أو ينبغي أن أقول إذا ما وددت أن أمعن في صراحتي، إن الاشتهاء معي كان يحل تاليا، كوني لا أشبه أولئك المندفعين خلف رغباتهم، الحريصين عليها، والراكضين في أثرها وكأن لا غاية لهم غير إشباع نهمهم وغرائزهم.

إن الأمر بالنسبة إلي كما لو أنه يخضع لقانون صارم، فنادرا ما أعرب عن رغبتي، بل كثيرا ما أتجاهلها، أو في أحسن الأحوال أدعها وعلى مهل تختمر أمامي.

أي نعم، كنت -وكما أعرف نفسي- أبدل بعض الإشارات، وقد لا أقف عندها، فأخوض في تلميحات تشي بإعجابي وافتتاني، لكني أبدا لا أبادر بأكثر من ذلك ما لم ألتق إشعارا أكيدا بالوجوب، ولهفة تقابل لهفتي، واندفاعا حييا لا يعرف كيف يناور باتجاهي فأحاول أن أسعفه وآخذ بيده بمزيد من الحرص والاحترام، إذ لا أسوأ في العلاقات من الابتذال، وإن علينا أن نتفق على أنه ليس هو نفسه الشقاوة، وأما هذه الأخيرة فإني أحبها بإفراط إذا ما أبدع فيها الطرف الثاني، فتأتيني كهبات منقطعة النظير.

ألوذ بالذاكرة. أحفر عميقا مستعيدا حكايات وقصصا حصلت معي عنوانها النساء. أستحضر بعضها، وأطويها سريعا ولا أقف إلا عند

حكايتي الأخيرة وعلاقتي بزليخة أو زوزو كما ينادونها، تلك الطالبة التي عرفتها قبل نحو عشرين سنة.

لم يكن الانضمام إلى المعهد الفني في تلك الفترة له علاقة بالتدرج الدراسي، وقد تجد فيه طلبة في سن الثلاثين ممن اكتشِفت موهبتهم متأخرا. والفتاة نفسها لم تكن من القُصّر الذين يخشى المرء من إقامة علاقة معهم، لكن ظل مستبعدا أن أسعى وأنا على مشارف الستين من العمر، وراء علاقة لا يمكنني أبدا أن أعرف إلى ما ستتطور أو ستنتهي إليه.

إن زليخة هي من طاردني، ووجدت نفسي واقعا في شباكها، وما إن اختليت بها في أوّل فرصة سانحة حتى أدركت أنها ليست حارة ولا شهوانية، ثم جاءت خيبتي منها عندما أخبرتني أنها بعد عذراء، وأن أهلها لن يقبلوا بها منزوعة العذرية، كما أسرت إلي بأنها مخطوبة لابن عمها منذ زمن، وهو رجل ترفضه، وإن تبدي إذعانها لرغبة الأهل حتى يسمحوا لها باستكمال دراستها، ففي عرفهم سيظل الخطيب مَحْرَما يمنعها من التهور وارتكاب الحماقات. ولقد ظلت العذرية، ولا تزال، في بلادنا تعني العفة والشرف، وإنها لتختلط في ذهن الرجال بمنطق غريب ليس فيه شيء من المنطق، إذ من النادر أن تجدهم يقترنون بالمرأة المطلقة، فإن حصل فعلى مضض، وإن كانوا يمنحونها صفة العفيفة، وأما المرأة غير العذراء فليس لها أي حظ في مجتمع مغشوش يلوذ بالدين لدرء نقائصه والشبهات عن نفسه؛ فإذا نالت شهادتها حري لها بعد ذلك أن تتصرف، ولا أفهم ماذا كانت تريد تحديدا غير عبث الصبيان.

لقد استوعبتُ أنها، وعكس ما تظهر، لم ترغب فيّ إلا بداعي الاستعراض بين قريناتها في المعهد، ولإثارة محيطها من الطلبة والأساتذة ولفت انتباههم. وتوقعت أن امرأة على شاكلتها لن ينوبني منها غير المشاكل، فبادرت بهجرها.

حين طلبتُ منها أن تتركني وشأني، توقعت أن تستجيب بسهولة، لكن هالني أن ترفض وتناكف وتظهر أمامي في صورة اليائسة التي دمرها الحب. وأمام هذا الوضع عمدت إلى خطة بديلة أردت من خلالها أن تكرهني. ولا أكتمك، فقد أرخيت الحبل لنذالتي، وسعيت وراء أقرب صديقاتها مغامرا مرّة أخرى وضاربا بسيرتي كلها عرض الحائط. كنت مرتابا وتحت وقع الصدمة وأنا أخشى أن تُقبِل على عمل متهور، خصوصا أن ما حصل أخرجها عن طورها. وتاليا لم تعد المشكلة بيني وبينها، بل بينها وبين صديقتها. فقد نشب بينهما خلاف تحوّل إلى معركة قاسية. وما هي إلا فترة هينة حتى فترت همتها، ومن صديقتها نفسها عرفت أنها مالت إلى أستاذ جديد في المعهد، لكنني حتى لم أسع لأعرف من يكون، وما دامت الغمّة انكشفت فإنه لم يعد هناك ما يعنيني.

صدقا، إنها آخر مغامرة أعرفها، بعدها صار الخوف من الفضيحة ديدني، كما أنه شكمني حين اقتنعت أنه لم يعد لي من مجال. وأمعنت النظر في سني، واعتبرت ما أنا فيه مجرد نزق لا يليق بمن يجب أن يعيش سويا، ولم تعد هناك من تسوية إلا بتجاوز طبيعتي القديمة وقطع الصلة بها والانتهاء منها دفعة واحدة، والالتزام بذلك فيما تبقى لي من

أيام. وأعترف أني وجدت الأمر قاسيا في بدايته، وبل ممعنا في القسوة والتطرف، لكني ما لبثت أن أعتدت وضعي الجديد، وضع الرجل العفيف والذي لا تشوبه شائبة، ما دام أنه استطاع أن يتطهر من ماضيه ويدفنه في جب قصي وخفي، دون أن يخلف أدنى أثر يفضحه أو يشي به. ويمكن أن يُنظر إلى ذلك باعتباره حُسن الخاتمة، وهي عبارة كثيرا ما نرددها في عرفنا ومجتمعنا.

بت أخشى الفضيحة نعم، لكن ليس لخوفي من كارين زوجتي، فهي غالبا ما بدت متساهلة ومتسامحة معي وبشكل لم يسعني أبدا فهمه، خصوصا وأنا أحدس أنها كانت على علم بكثير من علاقاتي، لكنها-ويا للعجب-تظل متحفظة أمامي، وقد تبكي جراء السوء الذي يصيبها حين تجلس وحيدة، أو حتى قد تفعل ذلك أمامي، لكنها في الغالب تضطر إلى الإدعاء واختلاق مشكلات أخرى تُعلّق عليها خيبتها، وتصوّر لي أنها سبب بكائها ومرارتها. ولأنها تظل تعلم، كان من الصعب علي أن أتقبل رد فعلها أمامي والذي لم يحد عن الصمت إلا فيما ندر، صمت لم أفهمه وإن كثيرا ما راح يستفزني ويجعلني أسخط عليها، فمن خلال صمتها أخذتْ تمعنُ في تعذيبي، وبطريقتها الخاصة تلك ما فتئت تشعرني بعاري.

لطالما اعتقدت أنه يكفي أن تنظر الزوجة إلى عيني زوجها حتى تفضحه؛ ثم إنه ومهما ادعى الثبات ليس بقادر على خداعها، وغالبا ما ينكشف أمره أمامها من زلة لسان أو لعثمة طارئة، ارتعاش يلم بالبدن، زيغان في بؤبؤ العينين، تنهيدة غير مصطبرة، إطناب في الأذنين، هذا إذا

ما استطاع أن يحافظ على سلوكه في حضرتها، فلا يغضب ولا يتوتر دون داع، أو حتى وهو يحاول أن يبدو هادئا وممعنا في هدوئه بشكل مثير وغريب، كما أن هناك أناقته لما يبالغ فيها خلال أيام معينة دون غيرها، بالإضافة إلى مواعيد الدخول والخروج وإدعاء السفر والمبيت خارج البيت مهما امتلك من حجة؛ وهذا بخلاف أنها باستطاعتها شم رائحة عطر غريب عالق في ثياب رجلها يفوته أن يستشعره، أو استحضارها لروائح جسد آخر تنضح مع عرقه ويغفل عنها، ناهيك عن رفضه خوض شوط آخر منهك في آخر الليل لا يكون هناك من داع إليه، لكنه يجبر عليه حتى إذا ادعى التعب وقع في الشرك اللعين، وإذا ما أدّاه في فتور ودون حماس فستكون النتيجة واحدة والحكم كذلك، ثم قد يفضحه التقلب أثناء النوم، والنوازع التي يبذلها خلاله مهما حاول أن يعلل ويقول إنها كوابيس رهيبة لها علاقة بمشاكل العمل وما يلاقيه من مصاعب الحياة، فلا شفيع له حينها، حتى يمكنني أن أجزم وأقول إن المرأة وبخلاف الرجل تملك قرني استشعار يصيّرانها متيقظة وبالمرصاد دائما.

لقد عدت إلى الشرب مؤخرا، وأما زجاجة الويسكي فأخبئها داخل المرسم. كل شيء أحبه أخفيه هناك، ما دامت كارين لا تلجه حتى للتنظيف. تقدر الخصوصية التي أمنحها لنفسي هناك في خلوتي، وتسعى لأن تحترمها، حتى إني لم أقع عليها تنتهكها ولا مرّة. مع ذلك فإن ما أشربه لا يتعدى رشفات صغيرة ممزوجة بالماء أو الصودا. هي للضرورة. أحافظ ومن خلالها على توازن ألقاه بشق الأنفس، ونادرا ما

أستطيع التحكم به أو السيطرة عليه. وما يهمني أن أتخفف من كل تلك الآثار التي صدّعت رأسي مؤخرا، وأدّت إلى خلخلة روتين حياتي الهادئ.

أشعر بالغبن لأنني مضطر أن أخفي أمر الشابة عن كارين. ما أخشاه سوء فهم بغيض تتوالد منه جميع الكوارث الأخرى. كنت أتمنى لو أستطيع أن أشركها في هذه الحكاية، ليس بالإسهاب نفسه الذي أعيش أنا على وقعه، فما يهمني في المسألة كلها ألا أتصرف باحتراس وكأني بصدد خيانة ما، ولا بد أنها انتبهت لقعودي المطوّل في الشرفة على غير عادتي، وإن كفّت عن إقناعي بالعدول عن ذلك كلما وجدت الوقت أو الظرف غير مناسب، متخلية عن اهتمامها بي، فكأنها لم تعد تحرص على صحتي، وقبل ذلك كانت تعتقد أنها مسؤولة عنها وعن كل ما قد يصيبني جراء تقاعسها أو إهمالها، فهل ذلك لأنها تحدس أمرا ما؟ ثم كيف لي أن أعرف؟ مع ذلك أعترف، قد تكفي نظرة فيها تلميح منها لتصيبني في مقتل!

لقد عزمت هذه المرّة. إن عاودت الشابة الظهور سأكاشف كارين بأمرها. أحدثها عنها، ما دام ليس بيني وبينها ما يريب أو يخيف، ثم إني سأفعل ذلك حتى لو اضطررت أن أمنحها شعورا بأن هناك امرأة أخرى تنافسها، وحتى لو سمعتها تتهمني بالخيانة، لأن ما يزعجني وفي إفراط هو عدم قدرتي على تحمل هذا الوضع الكريه؛ وأما الآن فلا يسعني إلا التريث قليلا. وأعني جيدا ما أقول، كما أني أقصد التريث قطعا، لا الهروب.

غريب!..

لا يمكنني أن أطلب أكثر، وهذه الراحة النفسية التي أقع عليها أخيرا أكثر من هبة سماوية، وإنها تمنحني الشعور بأني سأحلم بالشابة الليلة!

ها أنا أستعيد بعض توازني بعد هذه الكتابة. وبسببها أشعر أيضا أني تحررت وتخففت من أثقالي حتى إنه يمكنني الآن النوم بعمق.

فشكرا أيها العزيز لأنك لست ملولا، وتحسن الإنصات كلما تعلق الأمر بصديقك الأحب والأقرب. ثم لا تتعطل في الرد، فأنا لم أعد أحتمل تأخر رسائلك إلي.

صديقك المخلص دائما، محمد راسم"

الرسالة السادسة

يرن الهاتف، فيرد عليه. يكتشف أن من يطلبه هو الصحفي نفسه الذي يطارده منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ويجده لا يزال مصمما على محاورته. وإن لم يسبق له أن التقى به، إلا أنه يبدو متحدثا لبقا على الهاتف، كما يتكلم الفرنسية بفصاحة. قدّم له نفسه باسم الطاهر جاووت، اسم لم يسمع به من قبل ولم يعن له شيئا. لا يخبره بذلك، فهو يخشى أن يكون أمام صحفي ألمعي، ولا عذر له إذا لم يتعرف عليه، مع ذلك يُبقي على عناده، غير راغب في إجراء أي حوار، وإن لم يعد متأكدا من جدواه بعد مرضه.

يذكر أن الرجل قال له مرّة، وهو يخاطبه عبر الهاتف:

- في النهاية أنت من سيخسر، فأنا صلد كالحجر، ومصمم على مقابلتك، ولا يزعجني أن أنتظر مئة سنة أخرى.

يُذهله إصراره، وصبره. ومن شدّة ذهوله يرتاب في أمره، فهل يمكن أن يكون هو من يتبعه في كل مكان كظل له؟ وإلى أي حدّ يُعقل هذا؟

ما يظل يسوءه هو إهمال الصحافة له منذ أحيل على المعاش؛ لكن عقب وعكته الطارئة وتدهور صحته عاد فتصدر اهتمامهم،

واندفع صحافيون عدّة يطلبونه، ويرغبون في محاورته. وواضح أنهم يريدون السبق، ويهمهم أن يطلعوا على وضعه الصحي. أكثر من ذلك يطمحون أن يكون بعثه وإعادته إلى الحياة عبر صفحات جرائدهم وبمقالات تحمل توقيعا باسمهم. ولأنه يجد نفسه مضطرا هذه المرّة، على الأقل، ليُطمْئِن جمهوره والعالم، يفكر في التجاوب. ولأنه لا يمكن أن يجيب الجميع يفكر في أن يختار، ولما يختار لا يقع إلاّ على اسم جاووت.

حين اتصل به هذه المرّة استفسر منه عن التفاصيل والحيثيات. ولم يشأ أن يبدو مذعنا، لكنه سأل إلى أي صحيفة أو جهة هو الحوار. وعندما أكد له الصحفي أنه لأجل مجلة أسبوعية جزائرية تأسست حديثا، وتهدف إلى تعزيز ثقافة البلد وتكريس مبدعيه أبان عن بعض اللين، وحدّد له موعدا يوم الثلاثاء صباحا، على نحو الساعة العاشرة في شقته بالأبيار، ثم سأله:

- هل يمكنك أن تصل إلى العنوان دون أن تتوه؟

حينها أنصت للصحفي يرد ضاحكا:

- لا تقلق، وسعيد إنك رحبت أخيرا بأن أحاورك. سأكون غدا أمام شقتك في الموعد المحدد.

وفي الموعد المحدد هاله أنه يقف أمام شاب حديث السن، يبدو في العشرين من العمر. وألفاه متأنقا وبشعر غزير وشارب ينمّيه حديثا. وكان يضع نظارات رؤية بإطار أسود مربع، وتشع منه حيوية غريبة لا يوحي بها جسده الضامر من فرط الإجهاد.

لا يمكنه التراجع الآن. استقبله مرحبا به، وقاده إلى الصالون، فيما هو يرقبه بنصف عين، ويلاحظه كيف يُحاذر في حركاته، ويحاول أن يظهر واثقا من نفسه.

كلما كانت له مواعيد ثقافية أو وجد نفسه أمام الصحافة بدا متعبا وكمن أصابته الحمى. وخلال الحوار لا يبرحه التوتر، ويغلب عليه الارتباك والارتياب، ورغم كل الجهد الذي يبذله يبدو مهزوزا وبلا يقين.

يُقدِّر أن اللقاء الذي سيدوم نحو ساعة كاملة سيستنزفه بالكامل، وإذا أمكنه أن يطلب شيئا قبل ذلك، فإنه لا يرغب إلا في أن يوضع موّلد النبضات إلى جانبه، هكذا إذا ما اختنق وسقط مغشيا عليه استطاعوا إعادته إلى الحياة دون أن يُضيّعوا الفرصة.

سأله هل يرغب في فنجان قهوة. ومن تارموس أعدّه سلفا أفرغ له منها فنجانا وضعه أمامه. وفكر أن يدخلا في الحوار مباشرة. يجب أن يبقى اللقاء في إطاره العام، وبعيدا كل البعد عن الحميمية. ومن عادته ألا يطيل في الأحاديث الجانبية، مخافة أن تُؤوّل وتفسر بما لا يرضيه، ثم يجدها وقد ضُمّت إلى الحوار. ومن عادة الكلام الذي يرد خلال هذه الأحاديث أنه يتعلق بردود الأفعال. وإنه يشبه كثيرا ما يتفوّه به من أُخِذ على غرة، فيأتي كما لو أنه سُحِب من لسان المرء سحبا، وأقرب إلى ما نتلفظ به ونحن نمعن في السخط والغضب. وهو لهذا السبب أيضا يجنح نحو المبالغة فيصير مشوّها، متعريا، شفافا وفاضحا، يُعبّر عن اللحظة، ولا يمكن اعتبار مفرداته وتعبيراته أصيلة موثوقا فيها، كما لا يمكن أن يُعوّل عليه. وإنه ليس بين خلانه يسألونه عن حاله، فيغرق

ويفيض في وصف مشاعره، ويُفرط في الشكوى والتذمر ما دام قد وجد من يُنصت إليه. ولأنه بصدد حوار جاد ورسمي يمكنه إذا ما سُئل عن حاله، أن يتحدثَ عن حالة الطقس أو ما يحدث في أقصى بقعة من العالم، فالمهم ألا يفضح نفسه، ويُعري هشاشته، ويبقى مالكا لزمام نفسه، فلا يرتد إلى دواخله إلا عند الضرورة، وبالقدر الذي يسمح له بذلك.

يطيب لراسم أن يكون من هذا النوع، ولأنه كذلك يحرص أن يحيط حياته الشخصية بالكثير من السرية، ويحاول أن يحافظ على ما لديه بعيدا عن الأعين المتلصصة، وإن لا يمعن في فعل ذلك من باب الحذق، إذ كثيرا ما يعود الأمر للوحدة التي يرغب فيها، وللعزلة التي لطالما اعتبرها ملاذه الآمن. وأمام كل شخص يحاول انتهاك خصوصيته غالبا ما يتضاعف ارتباكه. ويقوده حرجه إلى القلق والتعصب، ولا يفتأ متى شعر بأنه محاصر يبحث له عن منفذ. وإنه يجده دائما، ويلوذ به حتى ولو لم يعجبه. وأما النوع الآخر من الفنانين، أولئك الذين يُحْدِثون من حولهم الكثير من اللغط رغبة في لفت الانتباه، الفضائحيون، الجاهزون للدّفع وتقديم ترضية ما لأجل أن يتم تصويرهم على شاطئ للعراة حيث يمكنهم استعراض بيضاتهم أمام الكاميرات وعلى الملأ فإنه لا يحبهم، وأمثالهم، ورغم ما في أعمالهم من عظمة وفن، كثيرا ما يثيرون نقمته وتقززه.

وجد نفسه أمام حزمة كبيرة من الأسئلة، تعلقت بكل شيء يخصه. ولادته، البدايات، العائلة، التنشئة، الاكتشاف، السفر، باريس،

التأثيرات، غاية الفن، جدواه، المحلية وفنانو الجزائر، راهن الفن ومستقبله والعراقيل. إعادة تعريف الفن نفسه، القطيعة، الأثر.. وكأن الفتى، ورغم حداثة سنه، يحرص على إدهاشه. إنه كمن حفر جيدا واستعد. ولا بد أنه راغب في تعريته، نابشا، باحثا عن كل ما لم يسبق لراسم أن أدلى به، حتى إنه، وليعترف، قد جعله يعيش جلسة استنطاق لا تخلو من تعذيب.

وحاول مع كل سؤال جديد أن يرتكز على أجوبة سبق له وقدّمها، مستعيدا تلك الكلشيهات الجاهزة والتي يرددها في كل مناسبة، ولا يفتأ أن يلمعها في كل حين بإضافة بعض البرنيق إليها كما لو أنه إزاء حذاء قديم يريده في كل مرّة أن يبدو جديدا صالحا ومقبولا. وأخذ يجيبه يقظا متحرصا، إذ لا مجال لزيغان العينين، الارتباك، محافظا ما استطاع على أعصابه مشدودة، فهناك من يمعن في مراقبته ومن تم مطاردته متى شعر أن ما يقوله لا يشفي الغليل. ولأنه يترصده يمكنه المناورة إذا ما لمس أن هناك ما يثير، راغبا في انتزاع اعترافات جديدة تكون تتويجا للحوار. وإذا ما فُرِض عليه أن يعترف، فإنه سيؤكد أن ثلاثة من الأسئلة التي طُرحت عليه كان لها الأثر البالغ في نفسه وردوده. وجلي أن الصحفي سعى إليها متقصدا، وأنه بالغ في إغراقه، ولا بد أنه أخذ يمارس عليه، ومن ورائها، ساديته، سعيدا بما راح يتلقاه منه كردود.

ابن من أنت؟

هل كان يقصد من سؤاله ذلك المعنى الحرفي الذي وصله في البداية فيكون الجواب عنه معروفا لا إشكال فيه، إلا من فرط تكراره،

أم أنه إسقاط لكل تلك الأسئلة الأخرى التي لا يفتأ يسمعها منذ بدأ يحصد أولى النجاحات؟ هل هو ابن أبيه وأمه، جزائري حتى النخاع، كذلك ابن بلده الذي مَثَّله عبر العالم وحيث وطئت قدماه؟ أم هو فرنسي، مولع بالشرق، كما قُدِّم في أكثر من مناسبة في فرنسا وإلى جمهورها، وفي العالم الغربي؟

تصيبه في مقتل تلك الأسئلة التي تحاول النبش في هويته، فتلقي بظلالها على حقبة تكوينه وانطلاقته غير مقتنعة بكل جواب أبداه.

في صباه كثيرا ما ركض وسط أزقة القصبة الضيقة، وفيها ارتاد الكتاتيب وحفظ القرآن والمتون، ثم درس بين أسوار المدرسة الفرنسية، قبل أن يلتحق بمكتب الرسم للتعليم المهني ويختص في المنمنمات، وهو لم يتعد الرابعة عشرة من العمر. وخلال ذلك، اضطر متى فرغ من دراسته أن يُعرّج على محل العائلة بالقصبة السفلى. وفي هذا المحل، وبحرص من والده تعلم النقش على الخشب، والنحت على الجص، وتشكيل وتزيين مختلف المواد. ولأنه عاش وسط الراشدين، تمنى لو يصير مثلهم بالغا ومسؤولا. وما لبث أن تخلى عن طفولته واللعب مع أقرانه، ومارس الدور الجديد الذي مُنح له في إتقان وحرص. كذلك كان مفتونا بأخيه عمر الذي ذاع صيته في العاصمة والجزائر، فجعل منه قدوته. ولعل أوّل الصدف الجميلة التي نالها التقاؤه بالفنان ألفونس إتيان دينيه، وكان هذا الرجل والذي اعتنق الإسلام حديثا واتخذ اسم نصر الدين دينييه، قد وضع مؤلفا أسماه "حياة محمد"، وكلّفه بتزيينه، فشهد كل من اطلع على العمل له بالبراعة. وتوثقت صلته بالفن عبر

الشعر أيضا، ومن خلال قراءاته التي ظل يحرص عليها، وقع المراهق الشاب المرهف الحس تحت تأثيره، وأُغرم بكتابات آرثر رامبو، ثم جان برونيه، وتيوفيل غوتيه، وإدوارد غرينيه، هذا قبل أن يكتشف شارل بودلير أكثر شاعر أعجب به. ورسم أوّل لوحة له، فجاءت تحمل تطلعاته الرومانسية، ومن فرط ولهه بالشعر حمّلها عنوان "حياة شاعر". وأما المنحة والسفر فمكناه من زيارة المتاحف العامرة بالمخطوطات والمنمنمات العربية والإسلامية. تحقق له عقب ذلك ما عدّه إنجازه الأكبر. فقد حظي بفرصته كاملة، وهي فرصة من الصعب أن ينالها عربي ناهيك عن سنه الحديثة، إذ أقيم له أوّل معرض في الجزائر عام 1919، فاحتفت به الطبقة المثقفة الفرنسية أيما احتفاء، وأما الوسام الذهبي الذي ناله من طرف مؤسسة الرسامين المستشرقين الفرنسيين فلا يعادله شيء. وبعد إقامة امتدت لعشر سنوات كاملة في باريس، عاد إلى الجزائر ليستقر بها. كان ذلك منتصف الثلاثينيات، وحينها عُيّن مدرسا للفن في معهد الفن بالعاصمة، وهي المهنة التي زاولها حتى أحيل إلى المعاش. مع ذلك فإن الخيبات التي مني بها لهي الأرسخ في ذاكرته من كل ما تحقق له، فلا شيء سهل كما يبدو؛ أيضا تسنت له خلال هذه الرحلة الطويلة التعرف على كبار رجال الفن في العالم، وإنه لطالما كان ظلا لكثيرين ممن عرفهم وظلوا يعيشون عميقا فيه، وإنه لا يمكنه أن ينكرهم، وينكر فضلهم عليه، وإلا عدّ نفسه جاحدا. ولهذا لما يُسأل من أنت؟ يمكنه اختصار إجابته بالقول، إنه ابن لكل هؤلاء العظام الذي أثثوا وزينوا حياته، وإنه أحدٌ. واحدٌ وحيدٌ دونهم، متعددٌ بهم.

السؤال نفسه الذي أثاره الصحفي سابقا أخذ يتكرر، وإن بلبوس مختلف. هل أنت مدين للآخر الأوروبي فيما حققته؟ وهل كنت لتنال كل هذا الصدى لو بقيت في بلدك الجزائر؟ وفي هذه الحالة أنت امتداد لمن؟ لثقافتك العربية والإسلامية التي مثّلتها لوحاتك، أم للثقافة الغربية باعتبار الفن أحد أوجه تلك الحياة في تلك البلدان، والتي جاء منها الانطلاق والارتقاء؟

كثيرا ما ترددت هذه الأسئلة في خاطره، ولطالما حيّره الجواب. وهو إن عالجه مرارا وتكرارا، فلأنه يجد نفسه غير قادر على الجزم بشيء. ولقد ظل يعتقد في جواب شاف يمنحه الخلاص، لكن أنى هو؟!

يُربكه السؤال. يُورطه أكثر، لأن صاحبه يظل يتربص به، وكأنه ينتظر هنّته ليصمه بها. هكذا في لحظة ستُنتزع عنه صفة الجزائري أو يُختزل فيها بشكل مجحف وقاس.

وحين يرى تململه يواصل الصحفي خنقه. يسأل كبداية، وكما لو أنه يمد له يد العون، أين تقيم الآن؟

يبدو السؤال واضحا وبريئا، فيجيب دون مداورة، حاليا أنا أقيم في الجزائر. ولا يلبث أن يقاطعه الصحفي بعدما أحكم قبضته عليه.

- مع هذا فإن هذا الكائن الذي أنا بصدد محاورته كائن متواري، معزول هنا في الجزائر، ولا يمكنني إذا ما بحثت عنه جيدا، إلا أن أعثر عليه هناك في الضفة الأخرى حيث يعرفه الفرنسيون أكثر من الجزائريين. هذا ما يظهر لي، وصدقا، لقد

عانيت حتى وجدتك وتعرفت عليك، ولم يحصل معي ذلك إلا عبر نصوصهم وما كتبوه عنك. عربيا لا أعتقد أنه بإمكاني العثور على شيء، وما قد أجده أمامي سيكون حتما بسيطا ولا يشفي الغليل، فما رأيك إذن؟

وكأنه فخ آخر. إنها نفس الفخاخ التي يزرعونها له دائما، وعليه أن يتلمس طريقه عبرها محاذرا ومنتبها. وإنهم يجبرونه مرارا على السير في حقل يعج بالجثث، وتجده يشعر بفداحة ما يقوم به كلما تقدم أكثر وكلما وطأها، حتى يُخيل إليه أنه يسمعها تصرخ وتئن، ومن فرط معاناته يصله شعور فادح بالذنب.

في هذه السن المتقدمة يمكنه القول، بأنه تجاوز شعوره الأوّل. وإذا ما كان لا يزال يسير في حقل، فهو هذه المرّة مزروع بالألغام، ووحده هذه المرّة سيكون الضحية، وحتى لا يحصل ذلك عليه أن يعرف أين يضع ويُثبت قدميه. يدرك أيضا أنه عليه المناورة، وإلا لن يسهل خداعهم. يمارس نفس لعبته القديمة. لا يقدم شيئا جاهزا، حتى إنه يبدأ فيسرد قصة قديمة سبق له وأن تلقفها من كتب التاريخ، وأما ما سيضيفه بعد ذلك فسيكون بمثابة الحل السحري لمعضلته. إنه يعوّل أن ينقل الشعور بالذنب منه إلى محيطه. هكذا يجعلهم يتقاسمون معه التبعات إذا ما حصل وسقط، وسيمكنه بذلك أن يتجاوز ورطته بأقل الأضرار الممكنة.

يقول، في زمن داود عليه السلام تنازعت امرأتان حول صبي صغير، وزعمت كلتاهما أنها أمه والأحق بتربيته، وأما الحَكم فاخرج

سكينا وادعى أنه سيشطر الصبي بالتساوي إلى جزأين، ولتحتفظ كل امرأة لها بنصيب منه، وتنتهي القصة حين يعمد الراوي إلى فعل أخلاقي بيّن يهدف من ورائه الانتصار إلى واحدة من المرأتين.

أجيال كبيرة سمعت هذه الحكاية، وأخذت منها باعتبارها حكمة بليغة. وخلال كل هذه الأجيال لا أحد اهتم بمشاعر الصبي، ولا أحد فكّر أن ينصت إلى ما سيقوله حينها باعتباره أصغر من أن يكون له رأي، ناهيك أن يتضمن قوله معنى ما. لكن ماذا لو أنه بإمكانه أن يدلي برأيه باعتباره أكبر قليلا ويستطيع؟ هل كان لينطق حينها حاسما المسألة بمنطق مختلف؟ أم تراه سيقف موقف العجز والحيرة؟ ولعله يمكنه أن يُفحمهم بالقول مستاء من كل الذي حصل، لماذا لا يتسنى لي الفوز بالجزأين معا؟ لماذا علي أن أخسر لأجل أن أكسب؟ ولماذا حين أكون (مع) يعني أني (ضد) في نفس الوقت؟ وما الذي يجعلني مجبرا على خيار خاسر منذ البداية؟

الحياة ليست حربا دائما، وهو حتى في زمن الحرب لم يكن معنيا بمنطقها، مفضلا طريقته وأسلوبه، ومخوِّلا لفنه أن يكون جامعا مقرِّبا بين الشعوب المختلفة وموحدا لها، مؤمنا أنه لن يأتي من صلب التفرقة إلا عنصرية مقيتة، وهي حجر عثرة أمام كل طموح. خصام دائم لكل شيء وباسم اللا شيء.

متجاوزا لكل نقاط الخلاف الظاهرة وغير المعلن عنها، ظل مؤمنا بفكرة التعايش والسلام. لم يولد عسكريا، وليس في فطرته شيء منها، كذلك الميل إلى العنف واختيار البعض له كسبيل لاستعادة

حقوقهم المشروعة، لم يجعله معنيا به. ولطالما ظل يعتقد بوجود حلول أفضل، أكثر سلمية وتحضرا، ولعل المحبة أحدها. لا يمكنه أن يكون إلا فنانا عالي الحس، فلماذا يريدون تحميله ما لا يطيقه؟

لا أحد يريد أن يفهم عليه. وكأن إصراره على البقاء في الجزائر رغم كل الخيارات المتاحة لا يكفي! وكأنهم يطالبونه ليثبت جزائريته أن يفعل أكثر من ذلك! ولن يرتاحوا حتى يرونه يدخل في خصام عنيف مع من يعادونهم.

لا يمكنه أن يتنكر لأحد مدّ له يد المساعدة لما كان يحتاجها، ولا يمكنه أن يهين كل من وثق به. يقف في الحياد خيارا، وليس هروبا، مستمسكا به مستعصيا ما أمكنه ذلك، لكنهم يصرون في غي. ولأنه لا يستطيع شيئا أمام ما يريدونه ويطالبونه به، يعيش منبوذا من الطرفين. تخترقه مِدية حادة من الجانبين، مع ذلك يحاول أن يظهر كما لو أنه بخير وكمن لا يعاني فيما تصدح صرخاته داخله، ويتوجع دون دواء معالج لحالة القهر لديه.

وأما سؤاله، ماذا تحقق؟ وما الذي لم يتحقق؟ وهل لا تزال ترسم؟ ثم هل تؤمن بالامتداد في الفن، وكيف تراه؟ فإنه يُعنى أكثر بالمستقبل. وأنت لن تصير واثقا، شديد الوثوق من المستقبل، ما لم تؤمن بماضيك، وتعدّه أفضل ما حصل لك.

جلي، وفي هذه السن، أن هذا الواقع قد أخذ يتعبه، وأمامه وكجزء من المهادنة لم يعد له من مناص غير الاعتراف. شبه صلح يعقده مع نفسه، حتى تخفت أوجاعه ويمكنه أن يتخفف من عبء ينتهي غير

قادر أن يتحمله كلما ركن إلى مرسمه. وبين خيارين أن يهجر الرسم نهائيا، وأن يواصل ممارسته راضيا كل الرضا بنتائجه وما يتمخض عنه اختار المواصلة. وفي هذه الحالة بات يدرك تمام الإدراك أن الرسم لم يعد أسلوب حياة، ولا حتى ضرورة كما يعتقد، بل هو وسيلة لمجابهة حياة تسير به نحو نهاية وشيكة. إنه أشبه بمُسكّن يضطر إليه حتى يتخفف من أوجاعه لا أكثر. ولهذا حين يظل يُسأل في ظروف أخرى عن جديده، يتململ شاعرا بحالة رهيبة من البؤس، وتراه يهتف بلا روح، سيكون هناك ما يستحق قريبا، لكنه أبدا لم يسع لعرض هذا الذي يستحق مع أن الوقت أخذ يمضي بوتيرة أسرع أو هكذا راح يعتقد، مضاعفا حرجه ومأزقه.

لا يريد إنجازا أقل، كما يخشى أن يلمح نظرات ملؤها التشكك في أعين من سيستقبلون أعماله، أيضا لا يرغب في أن يكون هناك من يجامله. وإن هذا الشرك الذي وجد نفسه فيه أخذ يتسع مع الوقت، حتى صار يعتذر عن تلك المعارض التي تطالبه بالجديد لأجل عرضه، قانعا بالمشاركة في سواها، ومبقيا على اللوحات نفسها يسحبها في أثره أينما ذهب معتقدا أنه يبلي بها بلاء حسنا.

لا شيء دون ثمن، وأحيانا يصير الثمن مكلفا وباهظا. لكن الناس لا ينظرون إلا للنصف المملوء من الكأس، هكذا قُدِّر لهم دائما، تحركهم في ذلك نوازع غير أخلاقية في مجمل الأحوال، وإن يحاولون التستر عليها. وإنه وبقدر نجاحاته قد نال ركاما هائلا من الآلام، وجراحا لم تلتئم إلى اليوم، منذرة له في كل حين بتفتقها وبريحها

وقيحها وصديدها. ليس سعيدا كما يتوهمون وهم ينظرون إلى سجله الحافل بالانتصارات، فلا شيء يصنعه الفرح، ووحدها الآلام حافز ومُكوّن مُجيد لها؛ وأما الخيبات فتبدو اليوم أمام عينيه بشكل أوضح، وهي أكبر بكثير من كل شيء، حتى إنها قادرة أن تحجب كما تفعل الظلمة كل شيء عداها.

يتحدث النقاد عن الامتداد، وهو لطالما اعتبر نفسه امتدادا لأجيال سبقته في فنه. ولأنه ليس بمقلد، سعى إلى تطوير إنجازاتهم، وعاد فقدم كل ذلك في قالب جديد ما عاد اليوم بقادر أن ينكره أحد. وأما عن أمنياته، فإنه كثيرا ما ردّد، أنه يتمنى لو يُشكل تلك الحلقة الصغيرة والضئيلة، والتي يمكن أن يستند إليها اللاحقون، وأن يكون نقطة ولو متناهية في الصغر، لكنها ملهمة للأجيال اللاحقة.

في النهاية لا شيء أكيد، وكل شيء غائم كصباح هذا اليوم الذي لم يكن مناسبا لهذا الحوار. مفرط في الالتباس حتى إن وجه الحقيقة لا يمكن أن يظهر فيه، فإن ظهر تجلى بقناع لن تقدر عبره أن تستدل على شيء، ثم من ذا يقول إن للحقيقة وجها واحدا؟ وهو، وحتى وإن حاول الادعاء، لا يعرف نفسه. وما يعتقد أنه يدلي به بدافع الحرص والصدق لا يلبث أن يراجعه في اللحظة التالية، خصوصا في هذه السنوات المتأخرة حيث لم يعد هناك مجال للتسرع، بل وقت كثير للتأمل والإطناب فيه.

هراء، لا يمكنهم معرفته مهما حاولوا، وإن يسعهم أن يتظاهروا بذلك. وأما هو فإنه سيظل يرفض أن يخبرهم بسره الصغير. أنه هو

أيضا، لا يعرف نفسه بالقدر الكافي؛ ثم من ذا الذي يعرف نفسه؟ خواطر ليس إلا، وإدعاء كاذب مغشوش، وإن لم يعد يُرعبه الوقوف على ذلك!

إلى سيسيليا غرانت
الجزائر-الأبيار

10، مارس، 1975

"سيدتي المخرجة المحترمة،

بتاريخ 07 مارس، توصلت إلى رسالتك الأخيرة، وأرى أنها جاءت لتدعم خطابك السابق، والذي تضمن رغبتك الشديدة في إخراج فيلم وثائقي يُعنى بحياتي ومسيرتي الفنية، وقد عمدتِ هذه المرّة إلى تضمينها توضيحات مهمة، في حرص بليغ منك تجاوزَ إبداء الرغبة إلى التأكيد عليها، بما كان له بالغ الأثر في نفسي. وأمام رجائك لي بالموافقة لأجل البدء في الخطوات الأولى التي تسبق التصوير، أجدني كمن حوصر في الزاوية، بحيث لا أكاد أعرف أنا الذي لا يميل إلى الغموض، كيف أعبِّر عن قناعاتي، وأضعك في الصورة مُجدِّدا اعتذاري.

نعم، رغم أني لا أدخر أي جهد في أن أكون واضحا كالشمس، قد لا أبدو مفهوما لك أو لسواك، ولأني كذلك ترينني الآن أعلن عن رؤيتي التي لم أسع في رسالتي السابقة إلى توضيحها، بعدما اكتفيت خلالها بالإعراب عن رفضي لفكرة تصوير الفيلم دون أن يعني هذا أني

أتهمك بشيء، ثم إني وأمام حرصك الشديد، وحتى أبدو مفهوما لديك، أجدني مضطرا لأشرح وجهة نظري، وآمل أن ألقى كل الصبر والتفهم.

لطالما تولى الإعلام وصُنّاع الصورة استعراض الأسماء ولوحات الفن بغرض التعريف بها وتقديمها إلى الجمهور، لكنهم ظلوا يفعلون ذلك وفق قاعدة ثابتة، إذ يعمدون في كل الحالات إلى التهويل والتضخيم، محيطين بعض الأسماء بهالة تكاد تنزع إلى التقديس، وبما يجعل حضورهم طاغيا وفريدا. وهم إذ يسعون خلفها، ويستعملون مباضعهم للنبش فيها، لا يعنيهم الحفر عميقا إلا بالقدر الذي يتيح لهم إعادة اكتشافها وإحيائها بالطريقة التي يرونها تناسب فكرتهم، وتكفل لهم نجاح العرض وتحقق الغرض منه. وفي هذه الحالة كثيرا ما ينقلب الفنان ويتحول إلى مجرد وسيلة لا تمثل إلا رغبتهم في الفوز أخيرا، حتى إذا حظوا بالتصفيق والتهليل أمكنهم إسعاد غرورهم الشخصي ومطامحهم، غير منتبهين أو ملتفتين إلى أن الفن كان وسيبقى ثقافة أفراد تمتلك الحس الفني، لا جماهير تدعي أنها تمثله؛ وأما أكثر من سيرحب بنجاح هذا النوع من الأفلام، وسيتولى الدعاية لها، فهم أصحاب صالات العرض وسماسرة اللوحات ممن يضاربون فيها علنا وفي الخفاء، مستغلين كل ما يمكنه أن يعلي من قيمتها، ويخدم حرفتهم التي ما فتئت تزدهر مغذية هذا التهافت والتفاخر لدى جامعي التحف والأعمال الفنية، في مهمتهم لتسليع الفن، وهي فلسفة تماشي الأذواق العامة وترتهن إليها، وتلبيها كضرورة وحاجة ملحة، لتصير مثلها مثل

الطعام والشراب، وإن كنا مجبرين على التوقف مطولا أمام قيمتها، قيمة انحصرت في جوهر طارئ، وهو مادي صرف، يجد من يرعاه ويؤمِّن عليه بغرض احتكاره، في إقصاء فاضح للمفهوم الجمالي والذاتي والمستقل في الفن عموما، ولتتم التضحية لاحقا بسلطة الأصالة والتجديد في مقابل سلطة المال في عمليات مشبوهة لتبييض المال الفاسد.

يروعني ما يحصل في هذا الصدد منذ فترة، حتى صار الجنوح إلى المباهاة بالتطرف ولفت الأنظار وإظهار الشذوذ وجهات فيها نظر، ومنها فقط يكاد البعض يكسب قيمته وتزدهر أعماله، بما يصنع طريقا مخالفا لكل القواعد التي عرفها الفن قديما. وفي اتجاه قولبة الفن سيسعى كل من لم يكن كذلك محاولا الظهور بغير نوازعه الطبيعية وبميل كبير وفظيع إلى كل ما هو لا أخلاقي في سبيل أن تزدهر صناعته وفنه، مُعوِّلا ومتملقا في هذه الحالة الإعلام وسلطته في اعتراف صريح بأن النجاح لم يعد مرتبطا بلوحاته وإنجازاته، وإنما برضا هذا الإعلام نفسه، والذي انتبه لسلطته الجديدة، فراح يبذرها شذر مذر، ومراعيا حساسيات الجمهور، وما تتطلبه صناعته.

ألا تكون الشجاعة، وفي ظرف مشبوه كهذا أن تعتزل الجميع وتلوذ بوحدتك مواربا بابها؟ ألا يتطلب فعل كهذا مقدارا من النخوة قد لا يتوفر لدى أولئك المزدهرين بعريهم تحت الشمس؟.. أفهم أنه خياري، وليس بالضرورة أن أكون على صواب، لكن إنما أنا هنا لأدافع عنه، وأعتقد أنه طريقتي في التعبير عن فني، وعن أصالته، كما أنها تأكيد

على قيمته، قيمة لا تتجلى لكثيرين، لكن يكفي أن يكون لك في هذا العالم الشاسع بعض ممن يهتم، ويساندك من هذا الباب، ويعتقد أنك على صواب.

كما يمكن أن يصير لهذا الذي يتمخض عني كقناعة، أن يبدو لآخرين عتيقا وباليا، وليس من صلب الحداثة التي يُروِّجون لها، وغالبا سيجدون ما يدعمون به أراءهم المتعسفة وأحكامهم الجاهزة والجائرة، ومنها أن من لا ينتبه لقوى الحداثة هم الرجعيون والمحسوبون على البلدان التي لم يكن ليقوم فيها الفن لولاهم، وغالبا يعنون هنا دول الجنوب في مقابل دول الشمال أو الغرب في عمومه، رائد النهضة وصانعها، مختصرين العالم كل العالم في هذه الصورة العنصرية المقيتة، وكأنهم من خلال ذلك يريدوننا متماهين، ومجرد أشباه بلا أدنى خصوصية، نذوب فيهم وننمسخ إلى الدرجة التي تنمحي فيها صفاتنا الخاصة، تلك الصفات التي ظلت ولا تزال تميزنا عنهم منذ بدأت الخليقة وبدأ الفن.

لا يمكنني أن أدعي وأقول إني مقتنع تمام الاقتناع بخيار عدم تصوير حياتي الشخصية لما في ذلك من استعراض مرفوض وبهرجة خادعة ودعاية لا غرض لها غير دعم نهج تسليع الفن، وهو ما أعارضه بحرارة وشدّة.

ومن هذا المنطلق، وفي حرص مني على رفض فكرة تمجيد الفن، هذا التمجيد الذي يقوم اليوم وفق قياسات مغلوطة لا تعكس مقدار الأصالة والتجديد والبراعة، ولا تستند إلى تلك الرؤية والفلسفة

العميقة والتي تحيل إلى المعنى والوضوح، وإذا كنت ضد ذلك كله، فأنا مع التقديم للفن عبر الفن نفسه وعبر نخبته.

ما أصدرته من رأي قاطع هو بالدرجة الأولى يعنيني شخصيا، فهو وثيق الصلة بقناعاتي، قناعات لا علاقة لها بعرضك، ولم تفرضها اللحظة الراهنة ما دامت مرتبطة بي أنا شخصيا، كما أنها تكوّنت لدي عبر هذه الحياة التي عشتها، وتمخضت عما أنجزته فيها، وتشكلت من هذا الفن الذي وهبته حياتي وكل ما أملك.

لطالما اعتقدت أن الأولوية هي للوحاتي، وأن تحظى بفرصة الإشهار لها والتعريف بها، فهذا من المفروض أن يدخل السرور إلى قلبي، فلا أحب لفنان من أن يكون مكشوفا وتحت الشمس ومتاحا للجميع، مع ذلك أرغب في أن أقول إني تابعت الكثير من تلك الأعمال التي تعرضت إلى فنانين مزدهرين من أمثال بابلو بيكاسو ونورمان روكويل وصموئيل باك وروبرت راوشنبرغ وسلفادور دالي وآخرين ممن يروجون اليوم لموجة ما بعد الحداثة، وأكاد أجزم أنها في أغلبها دعائية، وتنحو نحو الترويج للفن بأساليب مغشوشة لا فن فيها، وإن أتمنى ألا ينقص هذا من قيمة الفنانين أنفسهم ممن استجابوا لهكذا ظواهر تفرضها الرأسمالية الجديدة في أعقد تجلياتها.

إن ما لمستُه في رسالتك حين اضطررتِ إلى التوضيح، هو رهانك لتقديم المختلف والجاد، خصوصا وأنت تتحدثين عن الفن الشرقي ممثلا بفنانيه، وتطالبين ألا يبقى منغلقا على نفسه وضحية شعوره بالإقصاء والتهميش، وأن يبادر إلى الكشف عن نفسه كلما أتيحت له

الفرصة، وهي فرص نادرة كما أوردت. وأمام ما تفضلت به لا أنكر أنه انتابني إحساس أشبه ما يكون بالمنبّه، وشعرت كما لو أني في مأزق، ويفوتني أن ألاحظ ذلك.

لقد قلتِ بصريح العبارة إنه على الفن في الشرق أن ينقل معركته إلى عقر دارهم، وفهمت أنك بهذه الجملة تقصدين الغرب، وإن لم أكن لأتعاطف مع الكلمة التي استعملتها، وأعني هنا (المعركة)، إذ ليس الفن في حرب أبدا، أو لأحدد وأقول، إني لم أشعر كما لو كنت في حرب أبدا مع الغرب، هذا الغرب الذي تنتمين إليه أنت، ومع ذلك تعادينه، ما دمت محتفظة بجزء كبير من حريتك، حرية لمستها في التعريف الذي خصصته لنفسك في رسالتك الأولى، وحين قلت، إنك مخرجة سويسرية، تعرفتْ على أعمالي في زيارة قادتها مؤخرا إلى فرنسا. لا تنتمي إلى أي مؤسسة راعية، ولا تقدم نفسها إلا كمخرجة حرّة، مع بعض التفاصيل الأخرى، والتي تضمنت-مثلا- خيارا لم أهضمه، وتجلى ذلك لما أكّدتِ على أن التصوير لفيلمك سيكون في فرنسا، بما يدل على أن الأمر محسوم لديك.

لا أعاني من الاضطهاد، ولا أحمل بسبب هذه المشاعر شيئا من الحقد إلى أي جهة كانت. وأؤكد أن هذه النقمة التي يظهر أنها تصيب الكثيرين لم تصبني لا قديما ولا حديثا، فأراني أتقبل الجميع ما داموا إنسانيين، وساخط على سواهم ما داموا أثبتوا أنهم غير ذلك. ولعل الأمر يرجع لطبيعتي، إذ لست أميل إلى العناد، وربما أنا أكثر شخص مطواع في العالم. حصل معي هذا منذ طفولتي، وأستمر هذا الحال

طوال حياتي، ولا أظنه سيتغير بعدما شارفت على الثمانين من العمر. وإن كنت في مقابل هذا الرضوخ التام والطوعي للعالم من حولي، سعيت إلى خلق فضائي الخاص، وحاولت أن أحميه بالعزلة. وقد صرت رساما لأن الرسم فن متوارث في عائلتي، فكذلك هو جدي وأبي وعمي وأخي الأكبر، وإن وجدت هناك من يقول لي إني كنت أكثر نباهة من الجميع، كما يمكن أن يعزى الأمر إلى الحظ أو إلى تلك الصدف السعيدة والتي وضعت أمامي أناسا خدومين لم يُعبهم أن يمدوا لي يد العون متى رأوا أني أحتاج إليها، وفي هذا الصدد يجب أن أذكر الفنان الكبير نصر الدين دينيه الذي وضعني في أوّل سكة صحيحة، والمستشرق والناشر بيازا الذي صار لي أفضل صديق في غربتي، ثم زوجتي كارين بوندسون التي استوعبت عالمي الذي أعيش فيه، ورغم أنه عبارة عن دائرة مغلقة ويتشكل من العزلة والوحدة الخالصة، إلا أن الأمر لم يزعجها، بل راحت، وكما أشهد على ذلك، تحرص على ترتيبه بتفان وإخلاص على مدى خمسين سنة كاملة، وصارت بحكم المعاشرة تفهم متطلباتي ورغباتي أكثر مني، وتسعى بطريقتها إلى دفع كل عارض أو نشاز بعيدا، وتقوم دون لفت انتباهي إلى أن تمنحني دوما ما أصبو إليه دون شكوى أو تذمر.

كل هؤلاء، وآخرين غيرهم ليس هنا المجال لذكرهم، جعلوا موهبتي لا تتعرض إلى تلك الرجات الكبيرة والتي قد تلقي بظلالها على الفرد فتقوده نحو متاهات وصدام مع ذاته ومع محيطه، وإن لا يعني هذا أبدا أني وجدت الأبواب مفتوحة، والحظ ينتظرني على عتباتها.

ما أعيش في كنفه اليوم هو السلام، وهو نتيجة تضحيات وخسارات فادحة، وإن قدرت أن ما لاقيته من صعاب ومحن إنما هو ضريبة عادلة أوجبها حبي للفن، ووجدتني في كل مراحل حياتي راضيا متقبلا لها، فلا شيء من دون مقابل عسير ومكلف أحيانا، وأنا اليوم غير مستعد لمقايضة هذا السلام الداخلي بأي شيء كمقابل، وسأحرص أن أحافظ عليه بعيدا عن الأضواء الفاقعة حتى لا تصيبني لعنة الشهرة-وهي بنظري-أكبر جحيم يمكنه أن يتعرض له كل فنان أصيل. هذه هي قناعاتي، وقد لا تروقك، كما لا يمكنها أن تروق الكثيرين، لكنها تعجبني وتغنيني على كل شيء عداها.

ولأني أقيم في بيئتي الأولى، وهي الجزائر، ولأني ابن الهامش شئتُ أم أبيت، سأسألك ماذا عن المعارك في أراضينا نفسها؟ لاحظي أني أستعمل أسلوبك نفسه، أم لا يهم أن ننصر الفن في بلاد لا تكاد تحفل به، ووسط فضاء أخرق لا يكاد يحتمل الفنون، ويعيش في خصام معها ومع المبدعين ومع كل ما يحيل إلى الجمال والحياة، حتى إنه بالكاد يمنحه حيزا في يومياته ويُضمّنه فسحة صغيرة ضمن انشغالاته، وفي المقابل تجدينه يرعى مظاهر تدينه في حرص مبالغ فيه، أو في أحسن الأحوال يدعي اهتمامه بالجمال، فيقلد الموضة الجاهزة في نشاز، مراعيا قيم الاستهلاك، ومستعدا لتقبل الآخر المختلف عنه دون حساب، ثم يفعل العكس لما يعادي ابن بيئته عداء ظاهرا، وهو مستعد في ذلك لأن يستعمل أكثر الوسائل قذارة، فلا شيء أخلاقي في المجمل!

بالنسبة لي، لا يشغلني شيء كتوازني الداخلي، وما يهمني أكثر أن أكون واضحا أمام نفسي. وهذا التوازن له معطى خاص عندي أنا كفنان، وهو يشبه ما كنت أحاول أن أصوغ منه لوحاتي. وهكذا يبدو جليا أنه لا علاقة لهذا التوازن بذاك الذي يصنعه البهلواني وهو يلعب على حبله، ولا بذاك الذي يلجأ إليه السياسي حتى لا يبدو متناقضا في خطابه، ولا بذاك الذي يلوذ به أب أسرة معسر، ولا بذاك الذي يقيمه قاض مطلوب منه أن يحكم بالقسطاس، كما أنه لا علاقة له بذاك التوازن الذي قد يسعى إليه أي فنان آخر حتى ولو كان من جيلي ويتبع نفس مدرستي ومنهجي في الرسم، لأن نظرتنا إلى الأشياء ورؤيتنا لما يحيط بنا ليست بالضرورة واحدة وبالتالي ملزمة، ومن فضائل الفن هذا التنوع الذي قد لا يعجبك للوهلة الأولى، مع ذلك يمكنني أن أسر إليك بأمر خطير على أن لا تحاولي استعماله ضدي، إن هذا التوازن الذي أسعى إليه بيني وبين نفسي وبين فني هو توازن هش، وبل إن هشاشته مفرطة، وما أحاوله دائما هو أن أتستر على ذلك ببراعة نافذة حتى لا أبدو منتكصا ومترددا ومتخاذلا. وما هذا التصلب الذي أبديه في الواقع إلا محاولة مني للحفاظ على هذا التوازن، وأنا في كل الأحوال غير مستعد لتسميم أجوائي وتعكيرها في هذه السن المتقدمة، ولا بانتهاك هذا السلام الذي أنشأته بيني وبين نفسي وبين فني لأجل رغبة عابرة.

في الأخير، وبعد أن كتبتُ ما كتبت، أسأل نفسي لم كل هذا؟ لماذا أردت أن أكون شارحا لوجهة نظري؟ وهل حقا أخشى سوء الفهم؟ أم

أني أبحث لنفسي عن تسويغ ما يدفعني باتجاه رغبتك، ما إن أضمن أنها بعيدة عما يظل يخيفني، وعن فكرة تسليع الفن التي أمقتها ولا أطيقها؟

لا يمكنني أن أدعي وأقول إني مقتنع تمام الاقتناع بخيار عدم تصوير حياتي، مع ذلك أجد نفسي رافضا للفكرة، مرابطا عند رأيي، ومعتبرا أنه لا يمكن تقديم الفن إلى عبر الفن وحده، وإن أزعم أني- وحتى لا أخيبك تماما-سأركن إلى المزيد من الانتظار، فقد يبلغني منك تصور أكثر فصاحة، يُعرب عن فكرتك ورؤيتك وأهدافك كاملة، وآمل أن تُنير لك هذه الرسالة بعض ما هو مستغلق، وما كنتِ بحاجة إلى أن تعرفينه عني، ولعلها مدّتك برؤية أكثر جدّة، وزادتنا تقاربا وتقبلا لبعضنا البعض. وما يعنيني لا بد أنه بات واضحا لديك الآن، ولهذا آمل أن تعملي على إذابة شكوكي وإقناعي بإزالة كل غموض أو لبس يؤدي بي إلى التمسك برفضي، وآمل ألا تري في هذا تعاليا من جانبي أو أي انتقاص لقيمتك، فقد استطعتِ حقا إثارة فضولي وزعزعة يقيني.

وفي الأخير أشكرك على مواصلة قراءة كل هذا الفيض من الكلمات، معتذرا لك، وطامحا في سعة صدرك، وتفهمك.

الفنان محمد راسم"

الرسالة
السابعة

بدت كارين مستغربة وهي تقدم إليه إخطارا من الشرطة، قالت إنه وصل صباح اليوم. لقد أمضت هي نفسها على محضر الاستلام، وأما الشرطي الذي سلّمها الظرف فحرص في تأكيد على وجوب حضور راسم في الموعد المحدد. وحين سألته عن موضوع الدعوة، ادعى أنه ليس من صلاحياته الإدلاء بشيء.

بقيت تنظر إلى زوجها بإمعان وكأنها تطالبه بتفسير، وأما راسم ففتح الظرف بأصابع مرتبكة، وحاول قراءة ما جاء فيه، إلا أنه لم يقع على شيء محدد. يطلبون مثوله أمامهم غدا على الساعة التاسعة صباحا بمقر الأمن العام، ودون الإعلان عن السبب. هذا ما يجعله هو وزوجته لا يعرفان كيف يتخلصان من هواجسهما، هواجس لم تصب في موضوع محدد ما داما لا يفهمان ما يحصل.

وندّت عن كارين تنهيدة جزعة. وقالت دون أن تقدر على كبح مخاوفها:

- بجدية، يمكنك البحث عمن يساعدك. لا يجب أن تذهب إليهم دون أن تعرف فيما يريدونك.

وحاول طمأنتها:

- لا أعتقد أن هناك ما يستدعي القلق، وغالبا للموضوع علاقة بلوحاتي العالقة في المطار. لا يوجد سبب آخر يجعلهم حريصين على حضوري غيره.

أمكنها أن تهدأ أخيرا؛ وأما هو فظهر كمن لا يفهم. وفي غمرة تصوراته تساءل إذا ما للموضوع علاقة بمن يلاحقه. وربما فضحوا أمره، ووضعوا يدهم عليه. ومن فرط بلبلته لم يستطع الجزم بشيء. وقبل اليوم فكّر أن يقدم بلاغا لدى مصالحهم المختصة، لكنه غير متأكد مما يحدسه ويشعر به، وخشي أن يكون ما وقف عليه متخيلا فيقع في الإحراج، أو يكون مراقبا من طرف جهاتهم الأمنية نفسها، والأمر حينها لن يُفضي إلى شيء، وربما يورطه أكثر. وأمام هذه الحالة ليس له إلا أن يراهن على الصبر، وفي الغد لا بد أن تنتهي وساوسه كلها.

في مقر الأمن العام وُجِّه إلى الطابق الأول. واضطر إلى طرق باب على يمينه، ثم دخل مكتبا لا تزيد مساحته عن عشرة أمتار مربعة، حشرت فيه طاولتا مكتب، ورصفتا إلى بعضهما بما يشكل زاوية قائمة، إلى جانب أربعة كراسي وخزنات حديدية بأحجام مختلفة، وأما ما تبقى من مساحة ضيقة فقد اضطر إلى المشي فيه بحذر حتى لا تعلق قدمه أو يصطدم بشيء. وهناك استقبله الضابط المخوّل بقضيته، بهيئته التي لا توحي بأي اتساق. شوارب ثخينة. نظارة رؤية لم تعد تصلح. هندام الشرطة والتي يكاد يتفتق في أكثر من موضع بسبب جثته

الضخمة. صلعة براقة يداريها بِشَعرٍ سُحب من سوالفه ومُدّد فوقها، يظل يثبته بعناية فائقة كلما اهتز جسده.

جلس حيث أشار له الضابط الجهم، والذي لا يعلم أي شيء عن صلاحياته. ولا بد أنه تلقى تعليمات صارمة تحدد طريقة تعامله معه، بعضها أوامر من رتب عليا، وأخرى يكون اكتسبها من خلال مزاولته لهذه المهنة سنين عديدة، وهي تخضع لنوع المشكلة، والصفة الاجتماعية التي ينتمي إليها المعني، وسنه، وما إلى ذلك من خصوصيات؛ وإن اعتاد القائمون على مؤسسات هذا البلد من فرط اللامبالاة ألا يولوا أهمية قصوى لمثل هذه الأمور، حتى بات تجاهلها جزءا من النظام نفسه. وعندما ارتاح راسم عن على باله أنه يجلس في مقابل السلطة، وأنه عليه أن يبدو خاضعا لها، وألا ينخدع بمظهرها حتى وإن أظهرتْ في تعاملها معه بعض اللين، لأنه إذا لم يفعل ستعمد هذه السلطة نفسها إلى إخضاعه، ولها في ذلك وسائلها. أولها أن تُذكِّره بوجوب فرض النظام، والذي يعني تقبله المطلق لتلك الهرمية، والتي تعتلي قمتها هذه السلطة الأمنية نفسها.

في مقابل هذا الخضوع كان عليه أن يحافظ على رباطة جأشه. واستفسر من الضابط عن سبب الدعوة بكل وثوق. وأمامه تنحنح الضابط، قبل أن يواجهه بما في الموضوع من ثقل. وقال كما لو أنه يتجشأ:

- نعرف أن زوجتك السيدة كارين بوندسون ترتاد، وكل يوم أحد، كنيسة السيدة الإفريقية، وهذا لم يعد مستحبا في الظرف الراهن.

ما نريده منك أن تمنعها. وتأكد أن هذا في صالح كل منكما.

بُهت راسم. وظهر كمن لا يفهم. ولم يسعه التفوه بكلمة إلا بعد أن استرجع أنفاسه. حينها هتف مختنقا بعباراته:

- لكن ماذا تتوقع مني؟ أن أمنعها من الخروج، وأحجر عليها في البيت؟
- نحن نطلب منك التدخل بما تستطيعه. ولم نشأ أن نتعامل معها مباشرة حتى لا نتسبب لك في أي إحراج.

وزعق راسم مستنفرا:

- أفهم أن الناس أحرار في مذاهبهم، ولا يمكنك الحجر عليهم فقط لأنهم اختاروا دينا معينا. ثم إن زوجتي وُلدت ونشأت مسيحية، فما الذي تعتقد أنه بإمكاني أن أفعله معها؟
- البلاد تدين بالإسلام. وزد على ذلك، إنها زوجة رجل مسلم.
- لطالما اعتقدتُ أننا أمام القانون مجرد مواطنين. ولهذا أيضا أرفض أن ينظر إلينا على أساس انتماءاتنا الدينية.
- لكنك بهذا الشكل تجلب لنفسك المشاكل.
- لا أعتقد أنك تريدني أن أُذكِّرك بأنه في أزهى وأقوى عصور الدولة الإسلامية كان لغير المسلمين دورهم ومعابدهم وكنائسهم الخاصة. لا إكراه في الدين. ثم إن لهذا البلد نفسه علاقات دبلوماسية مع الدول الغربية، ومواثيق يجب أن تُحترم، ومن ضمنها الحفاظ على الشعائر التي تؤديها الجاليات التابعة لها.

كان يعي أنه في خضم مشكلة كبيرة، هذا لأنهم قرروا أن يجعلوها كذلك. ولعل الضابط حاول أن يُذكي مخاوفه، فاندفع ينبش في أوراقه كمن يبحث عن وثيقة ما مهمة، قبل أن يمعن فيه النظر، ويقول:

- لقد وصلتنا تقارير وجب الأخذ بها بعين الاعتبار. هناك من صار يبدي انزعاجه من هذه المظاهر. والمشكلة أنهم غير معروفين لأجهزتنا الأمنية، وكل الخوف من أن يبادروا إلى عمل جبان وخسيس ضد من يعتبرونهم الطغمة الكافرة.

وقد استطاع هذه المرّة إثارته، حتى إن الهلع ظهر باديا عليه. وتساءل في ريبة:

- من يكونون هؤلاء الذين لا يعجبهم ذهاب زوجتي إلى كنيستها؟ متزمتون دينيون مثلا؟ أصدقاء؟ جيران؟ يجب أن تعرفوا!
- واضح أنهم متدينون أصوليون. وأنت تعلم ما الذي يمكن أن يفعله أمثالهم. وساعتها لن يعجب الأمر أحدا. وقد تضطر أنت وزوجتك إلى دفع الثمن غاليا، فلا تحاول أن تحشرنا في عنق الزجاجة، لأننا حينها، وإن كنا نتخذ تدابيرنا، لن نستطيع عمل الكثير لأجلكما.

كان كمن يستعرض أمامه صورا عن الجحيم. يُخوّفه. يريده أن يرى ما لا يرغب في أن يراه. كذلك يسعى بطريقته إلى أن يجبره على الرضوخ. ولن يتنازل عن وضعه كضابط مسؤول منوط به أن يملي أوامره؛ وأما راسم-وفي هذه الحالة- فما عليه إلا أن يأتمر ويتقيد بها

دون نقاش. وهو يفهم أن هذه واحدة من وسائلهم لإخضاع المرء، وبعدها يمكنهم أن يلجؤوا لألف حيلة أخرى إذا هو لم يستجب لهم.

ها هو يحشره في الزاوية الضيقة، ويحكم عليه الخناق، مع ذلك يقاومه. ويسعى لأن يجعل خطابه مهادنا، لكن معقولا. ويصر في عناد أن يدافع عن حق زوجته في التعبد والالتزام بدينها أمام الجميع. عليهم أن يقبلوا بها كما هي، وعدا ذلك مغالاة، وكل مغالاة هي تطرف لا يجمع بقدر ما يفرق. كما أنه لا أحد يُعادي المسلمين المقيمين في أوروبا، فلماذا نعاديهم نحن في بلادنا؟ وكان يرى بأنه على حق، ولأنه كذلك أخذ يشعر بأن هناك قوّة ما إلى جانبه تسنده وتدعمه. وفي مطلق الأحوال لم يشأ أن يظهر مرتعبا ولا ضعيفا أمام الضابط.

فجأة أصبحت كارين، زوجته، تذهب كل صباح إلى الكنيسة. تُرتل الأغاني الدينية، وتؤدي الصلوات، وترسم إشارة الصليب، وتتذوق طعم القربان.

يذكر كيف أخبرته برغبتها. حصل ذلك لما انتهيا من عشائهما. حينها أوجزت ما تريد أن تعلنه له، فلم يتجاوز جملة صغيرة:

- غدا الأحد سأحضر القداس في كنيسة السيدة الإفريقية.

حاول أن يسيطر على المفاجأة التي اعترته. وبدل الدهشة قابلها بابتسامة راضية لا تشي بغير التعاطف. أراد أن يقول لها بطريقته إنه يفهمها، مقدرا أنه عليه احترام حاجتها إلى الأمان. لا بد أنها تشعر بالرهبة والوحدة، وأن هناك أفكارا لم تعتد أن تناقشها معه، تداهمها في هذه السن. أفكار لا ترغب في فتح موضوعها خشية ألا يتفقا بشأنها.

هكذا لم تجد إلا الرب سندا لها، وكان الرب الذي تعرفه منذ نشأت مسيحيا، ومن هنا جاءت رغبتها في ارتياد الكنيسة.

غير ذلك، ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ وأي حقوق تُراه يملكها، ويسعه فرضها عليها؟ وأي قناعات يمكن للمرء أن يجبر الآخر على اعتناقها والالتزام بها عنوة وباستعمال الضغط ودون إقناع؟

لا يمكنك أن تسحب أحدا من ذراعه، وتقوده إلى حيث ترغب وتريد! وإنَّ كل جبر يقوم ضد رغبة المرء، إنما هو إكراه وعسف وتعد على حريته الشخصية وحريته في المعتقد. ولا بد أنها خاضت حربا شرسة بينها وبين نفسها قبل أن تعلن أمامه ما انتهت إليه. وبالتالي فإن الأمر محسوم لديها. وهو، حتى وإن ابتغى مناقشها، لا يعرف ما الذي يمكن أن يقوله لها في هذه الحالة، ثم إنها قد تلمس في كل محاولة له لجرّها إلى النقاش على أنها تقييد لها. ويمكنها أن تجزع، ويتعكر صفوهما حين تراه يصر على النظر إلى الأمر من زاوية واحدة، هي تلك التي يعتقد بها. وهو لا يريد بعد هذا العمر أن تنشق أرضهما، ولا أن تتسع الهوّة بينهما. ليكن لها ما تريد، وليقفل باب الموضوع، فالصمت أولى، وكذلك راحتهما.

لكن ماذا لو حصل هذا في شبابهما؟ ربما، شعر حينها بالخيانة. وقد تجنح حياتهما التي اصطبغت بالهدوء في أغلب أوقاتها إلى الصدام، وربما ما كان ليُعمّر زواجهما طويلا أمام هذه العاصفة.

لم يسبق لهما أن تناقشا في دين أي منهما أو فتحا حوارا بخصوص أي دين آخر. وقد عقدا قرانهما عن حب، ولو أنهما اهتما لتلك

المواضيع التي يُعنى بها الآخرون، من مثل الهوية، والمعتقد، واللغة لما تحقق ارتباطهما أو لدبَّ الخلاف بينهما عقب أوّل بادرة. وظلت تلك المشاكل التي يقع فيها غيرهما، مجرد سحاب أبيض يعبر سماءهما. وليتجنبا العيش في المأساة تجاوزا أفكارا عديدة ظلت تشغل بال الناس من حولهما، فلم يكن يعنيهما تقسيم العالم حسب الجهات أو الأعراق أو الدين. ونتيجة مطالعاتهما فرضت عليهما نقاشاتهما استعمال كلمات هي من صميم الإيديولوجية، كالرأسمالية والامبريالية والاشتراكية والشيوعية. وكثيرا ما يتحمسان وفق معطيات معينة إلى أحد التيارات الكبيرة، لكن دون أن يعتقدا أن الالتزام بها حق وواجب، ناهيك عن الانتماء الحزبي. وليس غريبا أن يبقى راسم بعيدا كل البعد عن جبهة التحرير الوطني، وفي المقابل ظلت كارين في حياد مطلق أمام الأحداث الجارية في الجزائر إبان الثورة. وكان يمكنها أن تنقل تعاطفها في اليوم الواحد من جهة إلى أخرى، فإذا زعمت السلطة الفرنسية أنها قضت على "فلاقة"، تعاطفت معهم. والأمر نفسه يحصل حين تسمع بتفجير مقهى أو خمارة يذهب ضحيتها مواطنون فرنسيون. فلا معنى للتعاطف إلا في الالتحام مع المستضعفين والمغدور بهم ممن يدفعون الثمن. هذا التعاطف الإنساني مع الجميع وضد الجميع، وتلك الهشاشة التي لازمتهما، وبقيا من خلالها ينظران إلى العالم من حولهما ما لعب دور صمام الأمان في حياتهما، وحماهما من كل الأعطاب والمخازي التي راحت تقع فيها الأطراف الأخرى تحت مسميات عدّة تبتدعها لتسويغ ما لا يمكن تسويغه.

هكذا حين توالت الأيام، وأعلنت أمامه عن رغبتها في العودة إلى أحضان دينها والصلاة في الكنسية، واصلا بنفس منطقهما القديم. لا يمكن لأحدهما أن يعترض سبيل الآخر، والحرية حق للجميع ما دام لا مضار من ورائها. وهو يشهد أن كارين في ارتباطها بدينها لم تتجاوز تلك العلاقة التي تقوم بين العبد وربه، ولقد ظلت هذه العلاقة محصورة في نطاق الصلوات، سواء في الكنيسة كل يوم أحد، أو في البيت في بعض المساءات، فمتى أدّتها عادت إليه كما عرفها وعهدها منذ دهر، وبلا نقطة اختلاف واحدة.

بالكاد عرف راسم شيئا عن طفولتها، وإذا ما حاول التذكر لا يسعه الوقوف إلا على بعض التفاصيل الصغيرة والمتعلقة بالفترة التي قضتها كارين في السويد، فكأنها كانت تتحاشى كل كلام حولها، أو أنها اضطرت إلى حذفها نهائيا من ذاكرتها. ذاكرة لم تمعن في الحديث إلا عن باريس، المدينة التي عاشت وكبرت فيها.

أخبرته مرّة، أنها نشأت على أطراف مدينة غوتنبرغ بالقرب من بحر الشمال، في قرية صغيرة لا مدارس فيها. وتولى دير صغير للراهبات تنشئتها، وكان للدين النصيب الأوفر من وقت الدراسة، فتعلمت الصلاة والاعتراف بالخطايا وفعل الندامة، وتعلمت كيف تصير واحدة من الجموع، ممتنة وطيعة، وكانت ستنتهي إلى زواج تقليدي وأسرة وأبناء تكدح في سبيل إطعامهم والعناية بهم كما تفعل أغلب الأسر في تلك الأماكن المنفية.

وظهر أن والدها مجرد سكير رديء كأغلب رجال القرية، هرب من إعالة زوجته وأولاده الثلاثة دون أن يعرف أحد إلى أين؛ وأما أمها

فلم تطق العيش تحت جناح والدي زوجها، وفي خدمتهم كما تقتضي الأعراف في تلك النواحي، بعدما لحق بها العار لأنها لم تعرف كيف تحتفظ بزوجها. ولأن اللوم كله يقع على عاتقها، لم تخل أيامها من مشاكسة ومناكفة. وراحت تنحو إلى التنصل من أعبائها بعدما لم تعد تطيق صبرا. وتواترت إليها لاحقا أنباء مفادها أن زوجها في باريس، فقررت أن تلحق به، ولولا ذلك لاستمرت حياتهم على ما هي عليه في القرية. وأما ما سمعه راسم من الأم نفسها فقد ورد مختلفا على نحو ما. وادعت السيدة هيلدا في إحدى الجلسات القليلة التي اجتمع فيها بها، أنها وفي قريتها تعرفت على شاب طموح يصغرها سنا، تعلق بها وأحبته. وبما أنها على ذمة رجل آخر لم يسعها عمل شيء. وما دام الطلاق غير شائع في بيئتها، شجّعها فتاها على الهرب. واختارا فرنسا كمكان يهاجران إليه سوية، وكان يجب على كليهما أن يعبرا الحدود البحرية مع ألمانيا منفردين، ويلتقيان بعد ذلك على أراضيها ليواصلا رحلتهما بالقطار باتجاه باريس. ومكثت متخفية في مدينة روجين أسبوعا كاملا، بعد أن ركبت عبارة تجارية قادتها إليها كما نص الاتفاق. وعندما لم يظهر أي أثر للشاب قررت أنه لا بد تخلى عنها هو الآخر. ولم تحتمل فكرة العودة أدراجها، فواصلت طريقها باتجاه فرنسا، وهي تجر خلفها أبناءها الثلاثة. وكم كانت الرحلة صعبة، وأما الأصعب منها فتوضّيب حياتها الجديدة في باريس في ظل الحرب التي اندلعت في العالم بأسره، وما صاحبها من شُحٍّ في فرص العمل. ولأجل إعالة أبنائها والاعتناء بهم عملت نادلة في المقاهي والبارات، قبل أن تنتقل

لتعمل في مصنع للنسيج بعد نهاية الحرب، ثم استقرت عاملة في مصنع آخر لصناعة عبوات التنك.

وجدت كارين التي كبرت بسرعة صعوبة بالغة في تقبل العالم الجديد، وهربت منه إلى عالم الكتب التي أسرتها، وقد اكتشفت أن هذه الكتب الحديثة لا علاقة لها بتلك التي تعرفت عليها في الدير وقريتها. وتفتحت قريحتها على أثر ذلك، فمالت إلى الرسم والذي جاء مجرد خربشات على كراريس الدراسة. انتبهت لها معلمة الفنون، فشجعتها إلى الانضمام إلى معاهد الفن المنتشرة بوفرة في باريس وفرنسا، وطالبتها أن تبحث عن راع لموهبتها. وقضت نحو عشر سنوات تنشد هذه الموهبة، متنقلة بين معاهد الرسم، دون أن تستقر على مدرسة بعينها، ودون أن يراهن عليها أي فنان من فناني العالم الموهوبين الذين يطرقون باريس بكثرة، هذا قبل أن تلتقي براسم وتتعلق به وتختاره ليكون رجلها لبقية حياتها.

وأما راسم فلطالما اعتقد أنه من المحال أن يقترن بأجنبية، أو بالأحرى فرنسية. ولأن بلده الجزائر لا تزال مستعمرة لم يقدر على تجاوز ذلك الحاجز النفسي بين مستعمِر ومستعمَر، حاجز من المفروض أن يتبدد لما حققه كفنان، وللرتبة التي حظي بها. وما كان يرضى به أثناء علاقات عابرة أو من خلال الصداقات التي تنشأ بينه وبين الفرنسيين، لم يكن ليقبل به في حالة الزواج. ولقد ظلت تلك الديمومة تخيفه، كما بقي يخشى ويتهيب من تلك الإكراهات التي من الممكن أن يجد المرء نفسه خاضعا لها في المستقبل. هذه المشاعر

نفسها لم تقف كحاجز يحول بينه وبين كارين لأنها سويدية. واكتشف أنها مثله تسعى إلى ترسيخ قدميها في بلد ينظر إليها على أنها أجنبية، فلا يقبل بها تماما ولا يلغيها. ولأنها مهاجرة مثله، ومن ضفة بعيدة، ما فتئت تفضحهما لكنتهما التي لا تشبه لكنة أهل باريس أو غيرها من المدن الفرنسية، ناهيك عن تصرفاتهما وما ينتج عنها من بلبلة تصيب كليهما بالتردد والإحباط. ولم تكن تمضي حفلات الرقص وجلسات الشرب والتدخين والتنكيت التي يضطران إلى المشاركة فيها دون سقطات ولفت انتباه الآخرين، والذين غالبا ما تعلوا ضحكاتهم سخرية واستهجانا. ووجدا في علاقتهما ما يشكل نوعا من الاحتماء. ولأنه لديهما ما يشتركان فيه جاء ارتباطهما ببعض.

لكن هل كان راسم متدينا؟

غالبا إنه كذلك، وإن لم يكن يؤدي الفروض مثل الصلاة والصوم؛ وأما الإلحاد فظل يشده إليه جانبه العقلي. الإيمان بالإنسان وقدرته على اجتراح المعجزات. وأما علاقته بالله فكثيرا ما ارتكزت على الثقة، ثقة مفرطة ومشبعة لا شيء قبلها ولا بعد، وعلى هذا الأساس لم يشعر يوما أنه عليه الخشية منه. كذلك إنه لا ينبذه، وإنه ليس مولعا به أيضا. وظل الله قابعا هناك في الوسط تماما، ما بين الكره والحب، وفي النقطة الفاصلة بين كفتي الميزان، حيث ومهما تحركت الكفتان، ما كان لهذه النقطة أن تتأرجح أو تميل.

ولأن الدين عماد الحياة حيث ولد ونشأ، خال نفسه يعرفه تماما. ولقد عرفه في طفولته، وفي بيت العائلة والكتاتيب. وأنصت إليه في صوت

المآذن كل جمعة أو من خلال المواقيت الخمسة التي تحدد يوميات جميع المسلمين. ولمسه أثناء تعاملات الناس من حوله، وخلال الأعياد. كما كان حاضرا في الأسواق والاحتفالات، وفي الزواج والطلاق، وخلال عقد الصفقات وما يعقبها من منازعات. ومن كل هذا أدرك أن فكرة الدين نفسها تعني فيما تعنيه ذلك اليقين بالخضوع. خضوع بدوره جرّبه طويلا في حياته، وعرفه منذ نشأته الأولى. وفي البيت لاحظ كيف أن أمه تخضع لسطوة رجلها في البيت. وفي الورشة ظل والده وأعمامه يخضعون لجدّه. وهو نفسه–أي راسم–خضع لسطوة مريده ومعلمه في الكُتّاب، كما خضع لاحقا لأخيه الأكبر عمر، ولآخرين هنا في الجزائر أو باريس، كما يُقدّر أن نجاحه يعزى في جانب منه لهذا الخضوع نفسه والذي يعني في شق منه الخسران والثبور، على أنه وأمام خضوعه الآني للآخرين عطَّل خضوعه لله، وما دام يثق بربه لم يشعر بأي حرج أو تأنيب ضمير.

ويمكن القول إن الدين ظل رفيقه. يتفاعل معه من خلال يومياته، لكنه بالكاد كان يراه العين للعين. وقد عاد في سنواته الأخيرة ليصطدم به وهو يفكر من جديد في المسألة برمتها ما دام مضطرا إلى التفكير في الموت، لكن ليس على أساس أنه مشكلة شائكة وعويصة تستوجب الاستعجال والانتباه. ولطالما أصرَّ المسيحيون أنفسهم أن الله محبة، كما أكّد المسلمون أنه غفور رحيم، وأجزم الملاحدة أنه ليس هناك في الأخير ما ينتظرنا. وهذه النتائج الثلاثة لم تكن لتختلف عن بعضها البعض، وتكاد تعوّل على نهاية واحدة لا تستوجب كل ذلك القلق الذي يلمسه عند الآخرين، إذ لا خوف!

وعدا ما طلبه منه الضابط، ظل هناك شيء آخر يرمي بثقله على هذا اللقاء. وخمن أن يبوح له بما يحدسه، ويُخطِره بأنه مراقب وملاحق، مُؤمِّنا على كلامه، ومؤكدا له بأن من يخشاهم جهازه قد بدأوا بالفعل حملتهم ضده، وربما ضد زوجته أيضا، لكنه توجس من أن يجد الضابط في ذلك فرصته، فيمارس مزيدا من الضغط عليه. ثم إنه ليس متأكدا من شيء، وربما يكون أفرط في حدسه، كما يمكن أن ينجر عن هذا ما لا يريده ويرغب فيه.

وانتهى إلى الإقرار بأنه إذا ما كشف للضابط ما يتعرض له، فإنه سيضمن على الأقل المزيد من الحماية لهما، هو وزوجته. وحين أبلغه بالأمر، تفاجأ به يطلب منه وبكل برودة أعصاب إيداع شكوى بالأمر.

هتف في نزق:

- ها أنا أفعل الآن!
- ليس في مكتبي لأن هذا يتجاوز صلاحياتي. ويمكنك أن تتقدم ببلاغك في مكتب الشكاوى بمركز الشرطة التابع للحي الذي تقطن به.

وقبل أن يخرج أعاد عليه الضابط نفس طلبه السابق. أن يقنع كارين بعدم الذهاب إلى كنيستها. وحاول راسم أن يمنحه ذلك الإحساس بأنه سيفعل، فكأنه لان فجأة ورضخ. وهو نفسه لم يكن يفهم لِم يفعل ذلك!

وكأنه لم يعد واثقا من نفسه! وكان يحتاج إلى أن يعيد التفكير بعيدا عن الشحن والضغط اللذين ارتهن إليهما طيلة مكوثه في مكتب

الضابط، خصوصا وأنه لم يضطر من قبل إلى دخول أقسام الشرطة، ولم يألف وضعا مماثلا طوال سنوات حياته. وربما مرّ بخاطره أنه بإمكانه مكاشفة زوجته بما حصل معه، هكذا يضعها أمام الأمر الواقع، ويترك لها حرية الخيار حتى لا يُحمِّل نفسه أي تبعات لاحقة، وليكن الحل الذي سيريانه نتيجة نقاش هادئ ومتزن.

في البيت وجد زوجته بانتظاره. لقيته قلقة وبملامح متعبة. وحاول طمأنتها ما استطاع. كان يدرك أنه عليه أن يتصرف، وقد فكّر طوال طريق العودة فيما عساه يقوله لها.

آثر ألا يطرق الموضوع. على الأقل ليس في هذه اللحظة. ليتمهل حتى تتسنى له مراجعته على مهل؛ وأما الآن فيمكنه اختلاق أي عذر، وإدعاء أي كذبة يراها معقولة ومناسبة، فهذا في صالحهما أيضا.

أكد يقول لها:

- لا أُصدق أنهم قرروا التحرك بشأن اللوحات. وقد طلبوني حتى يستوضحوا مني بعض التفاصيل بخصوصها. والظاهر أني سأتسلمها منهم قريبا.

لم يبد على كارين الاطمئنان، ونطقت في حيرة:

- ولكن ما علاقتهم باللوحات؟
- حتى أنا لا أفهم، لكن من الواضح أن هذا نتيجة البيروقراطية التي تفشت في البلد.

أخيرا انطلت الكذبة على كارين، وتبددت مخاوفها. وظهر أنها لا تعاني من أي ارتياب. لا شيء مزعج إذن. وفيما الطمأنينة تسري فيها،

بقي راسم مسكونا بهواجسه المضمرة، والتي لم يعرف كيف يقصيها جانبا. وغلب عليه التردد اليوم كله. ولم يكن متأكدا بوجوب إخفاء الأمر عنها، وإن راح يؤثر التريث. ومما يخشاه من ردود أفعالها، أن تواجهه بالقول، لم يعد لنا شيء هنا، فلماذا البقاء؟ ووقتها لن تلوح لهما غير باريس كوجهة محتملة ومتوقعة، لكن حتى في تلك المدينة عليهما أن ينشدا ملجأ ليس متوفرا في الحين. وهو لا يريد أن يعكر صفو أيامه الأخيرة، كما لا يرغب إذا ما توفّاه الأجل، أن يُدفن خارج بلاده، ولا أن يُثقل على أحد بموته.

وكمن استوفى حيله كاملة، سقط ضحية الأمر الواقع. وظل هناك حتى اليوم التالي ما يقض مضجعه. وأمام هذا الوضع الكريه اتخذ قراره، ورأى أنه من الأجدى أن يُكاتب وزير الإعلام والثقافة شخصيا.

إلى أحمد طالب الإبراهيمي
الجزائر- الأبيار

16، مارس، 1975

"حضرة وزير الإعلام والثقافة المحترم..

سيدي، على مدى السنوات الخمس والتي تسنى لكم فيها شغل منصب وزير الإعلام والثقافة لم نلتق، وإن تعارفنا وتقاطعنا في مناسبتين اثنتين قبل ذلك، إحداهما خلال إقامة معرض لي في باريس، وحصل أن زرتني فيه بوصفك رئيسا للاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين. وكم أسعدتني تلك البادرة والتي لا أزال أذكر تفاصيلها جيدا، لما فيها من دعم. وقد حضرتَ حينها برفقة طالبين اثنين آخرين، وتسنى لنا تبادل بعض الحديث في مقهى اللوتس المقابل. ولا أكتمك أن احتفاظي بهذه الذكرى إنما ينبع من أن زيارتك لم تكن زيارة مجاملة فقط، وبل أكثر من ذلك، فقد ظهر أنها مشبعة بمحمول سياسي لم يخف علي وعلى مسؤولي المعرض أنفسهم، وإن حاولوا تجاهلها للمحمول نفسه، وحتى لا تُثير أي لغط جانبي يسيء إليهم. ومرة ثانية قُدّر لنا أن نلتقي، وحصل ذلك على هامش زيارتك لمعهد الفنون أو للمدرسة الوطنية للعمارة والفنون كما صارت تسمى في عهدكم،

بصفتك وزيرا للتربية والتعليم، ولم يكن الغرض من الزيارة حينها غير تكريم مديرها الفنان بشير يلس، والذي يستحق كل الاحترام والتقدير. ولأن الظروف ساعتها لم تسمح اكتفينا بتبادل تحية أخوية صادقة؛ وأما أن أكاتبك فإن ذلك ما لم أفكر فيه من قبل، وإذ أنا أفعل اليوم، فلأني تحت طائل ظرف طارئ وقاهر وملح يشعرني بالعجز والحيرة.

أكتب إلى سيادتكم مجبرا، وأفعل كما لو أني أخوض وسط وادي مليء بالطمي، أنقل فيه قدميّ بجهد عظيم، وبكل ما في من إصرار ما دمت مضطرا، وما دامت هذه الأفكار التي تجول الآن في ذهني تنتهكني وتوقعني في حيرة أقف أمامها مكتوف اليدين. ولأنها تخيفني وتخنقني أيضا، ولأنها تقصيني نحو أرض لا أملك فيها أي ملاذ، ولأني وحيد، أتوق إلى عونكم.

إني أهيب بالمثقف والكاتب والدكتور قبل شخص الوزير والمسؤول أن يتدخل للإفراج عن لوحاتي المحتجزة دون مبرر في مطار الدار البيضاء الدولي، وذلك منذ عودتي الأخيرة من معرض شاركت فيه بلندن مشرِّفا بلدي الجزائر، أقيم ابتداءً من تاريخ 23 ديسمبر، واستمر إلى غاية 02 جانفي من هذا العام، وهو يوم عودتي إلى أرض الوطن، واليوم الذي احتجزت فيه أيضا لوحاتي. ولعلكم ترون معي أنها فترة طويلة، وخلالها لم تقدم لي فيها أي حجج أو توضيحات ولا أي ضمانات تؤكد سلامة أعمالي المرهونة دون وجه حق، بما يعني أنه انتهاك صارخ لحقوقي وللقوانين المعمول بها في كل مطارات العالم، وقد اعتدت الدخول والخروج عشرات المرات، وعلى مدى تاريخ

طويل، إلى أرض الوطن محمّلا بها وبغيرها دون أن يعترضني أحد، وكل الخشية أن تتعرض إلى السرقة أو التلف، مما يعني ضربة قاصمة لي.

ولأجل أن أضعكم في الصورة كاملة، أحيطكم علما أنه تم استدعائي إلى مديرية الأمن العام بتاريخ 15 مارس 1975. وفي الواقع إني بذهابي إليهم كنت أستبشر خيرا ومتفائلا بعدما اعتقدت أن القضية لها علاقة بلوحاتي الحبيسة في المطار لأتفاجأ بهم يستدعونني لقضية أخرى، ما إن كُشِفت أمامي حتى شعرت بالخيبة، وعرفت حجم البلاء الذي أتعرض إليه وأرزح تحت وطأته.

لقد طلبوا مني سيدي الوزير، بكل صفاقة ودم بارد، وأعتذر عن الجملة، وأنا لم أستعملها إلا لأني اعتبرتها وحدها المناسبة في هذا المحضر. لقد طلبوا مني أن ألزم زوجتي كارين بوندسون بالمكوث في البيت، وأن أمنعها من الذهاب إلى كنيستها لأن هذا يثير حساسية ونقمة البعض، وإن لم يسمّهم ولم يشر إلى طبيعتهم، وكأنهم بذلك يتناسون أنها مسيحية أبا عن جد! وكأنهم يغفلون أنه لا يزال يعيش بين ظهرانينا المئات، حتى لا أقول الآلاف من المسيحيين والمتدينين بغير دين الإسلام!.. فكيف برأيك سيدي الوزير سنتعامل معهم جميعهم؟ هل سنطردهم ونعيدهم إلى ديارهم؟ وهل يمكن أن يحصل هذا في بلد المليون ونصف المليون شهيد، وفي بلد التضحيات؟ هل حقا، هذا ما نريده وحاربنا لأجله، بلدا بلون واحد، ومزيج واحد، وخلاصة واحدة؟

أجدني سيدي، وأمام هذا الوضع الذي لم أتوقعه، ولم يرد بخاطري يوما، واقعا في معضلة عويصة، حتى إني لم أستطع إلى الآن أن أفاتح الزوجة بالموضوع الذي استدعتني إليه إحدى هيئاتكم الموقرة، والتي تُمثل هذا البلد، بلدي الذي أحبه وأحترمه. ولم أقدر أن أخبرها أن هناك من الجزائريين اليوم من يكرهها ويناصبها العداء، ويسعى لسجنها في بيتها ما لم تُضح بشخصها وتاريخها وعقيدتها لتتشبّه بهم، رغم أن ديننا الحنيف نفسه يكفل الحريات ويمجد الأديان كافة!.. ثم كيف يمكنني بعد ذلك أن أنظر في وجهها؟ إنهم يدفعونني إلى أن أغض الطرف كلما واجهتني بنظراتها، وإنهم أمامها يصرّون على إلباسي ثوب الذلة والهوان، ثوب اعتقدت أنه يسقط على من صار في أرذل العمر!

وهل كانت لتنتهي مصيبتي عند هذا القدر؟

يقولون إن الرزايا إذا ما ابتلي بها المرء، تأتي تباعا، حتى إنه بالكاد يستطيع التخلص منها؛ وأما معضلتي الأخرى، فهي أني أشعر بي مراقبا، وضع نفسك مكاني إذا ما استطعت سيدي. إن مجرد التفكير في ذلك يصيبني بالشلل والذعر.

فاتحتُ الضابط المسؤول في مكتبه، رغم أني تصورت أنه بدل من أن يهدّئ من روعي، سيجد في المشكلة فرصته، وسيعمد إلى إذكاء مخاوفي. هكذا يمكنه تطويقي وخنقي وممارسة المزيد من الضغط علي، مؤكدا أن الأخطار التي يخشاها جهازه بدأت بالتحقق، وأنه لأجل سلامتي وسلامة كارين علي أن أجبرها على عدم الذهاب إلى كنيستها لأداء صلواتها. وبصراحة أكبر، لقد عبرني خاطر أسر إلي أن

جهازه من يتكفل بمراقبتي، ولكني لم أفهم إذا ما الغرض من ذلك حراستي أم تخويفي. خاطر يعود إليَّ اللحظة أيضا، ويدفعني إلى أن أتساءل، هل هذا الذي يمشي خلفي كظل لي هو من رجال المخابرات، وتابعا لسلطة من سلطكم؟ أم هل يكون واحدا من أولئك الذين يزعجهم ذهاب كارين إلى الكنيسة، وهو هنا ليتربص بنا؟ أم هل يكون أي شخص آخر، ما دمت عاجزا عن فهم دوافعه، وغير قادر على استيعاب هذه المأساة التي تحصل من حولي؟ ثم كيف أمكن أن يحصل كل هذا؟ وماذا عن هذه الحلقة العرضية من المشاكل التي انهالت علي دفعة واحدة؟ إن الأمر، وفي هذه الحالة، يصبح أكبر من مجرد صدفة، وإنه يمنحك شعورا لا يمكنك إقصاؤه، بأن هناك من يتآمر ضدك!

وكما شاء الضابط المسؤول، انتهيت لاحقا إلى تحرير بلاغ ضد مجهول، ما دمت غير قادر على تمييزهم ولا تأكيد وجودهم، في مكتب آخر ومقر يقع بالحي الذي أقطن به، بعدما عرجت عليه في توقيت آخر، حتى لا ألفت انتباه الزوجة. وها أنا أرفق رسالتي هذه بصورة من المحضر نفسه والذي حمل رقم 317؛ كما أحمّلكم، وأحمّل الجميع مسؤولية ما قد يحصل لي أو للزوجة كارين بوندسون أو مع لوحاتي، وهذا نظير عدم القدرة على الاحتواء، ولما لاقيته من استخفاف في المعاملة. وما لا أتمناه في هذه السن، أن أبدأ بمُعاركة الحياة من جديد، أنا الذي اعتقدت أنه لم يعد في جعبتي إلا ما يسمح لي بالعيش لأيام قليلة قادمة، تمنيت لو تمر بسلام.

أشعر أني مهدد في بلدي، ومن واجب هذا البلد الذي وهبته كل ما أملك، وصرت فيه أحد أبرز معالمه، أن يحميني؛ كما لا يمكن للسيدة الزوجة أن تبقى في بلد لا يريدها، بلد آمنت باستقلاله، وعاشت وسطه كأي واحد من أفراده، متماهية فيه ودون حسابات، لتجده اليوم يسعى بكل الطرق والوسائل لخنقها والتضييق عليها.

ليس سهلا أن أترك البلد الذي عشت فيه، لكن إذا ما كنتم تثقلون كاهلي بالحديد وتجبرونني على الرحيل فسأرضخ، فلا أحد يرغب في أرض لا يشعر فيها بالأمان. ولكم حينها أن تتحملوا العواقب، ولكم أن تُنصتوا لانهيار المبنى الذي شيّدته بحرص وتفان شديدين، بدويّ مزعج وصارخ، ولكم أن تمنعوا ساعتها صورة هذا الخراب من أن تنتشر عبر العالم الواسع والرحب.

إنه أكثر خطاب محبط يمكن أن يكتبه المرء، مع ذلك أحاول أن أشحنه بكل ما بقي لدي من أمل. وفي انتظار ردكم وخطوتكم العجلى في رفع الغبن عني، تقبلوا مني أسمى عبارات التقدير والعرفان.

فنانكم، محمد راسم"

الرسالة
الثامنة

- هناك من سأل عنك في غيابك.

قالت كارين، بينما ينزع راسم عنه سترته ليعلقها على المشجب في غرفة النوم.

كانت تقف خلفه تماما، فالتفت يسأل بلا مبالاة:

- على الهاتف؟ من يكون؟
- شابة جاءت تبحث عنك في البيت، وأخبرتها أنك غير موجود. ولقد قالت إنها ستعود غدا على نحو الساعة الثالثة مساءً.

هل تكون هي نفسها فتاة الشرفة؟

اضطرب وتلوّنت ملامحه. وامتن للحظة التي راحت فيها زوجته تتحدث عن الشابة دون استهجان، ودون أن تسأل ذلك السؤال الذي يُخيفه:

- ما الذي تريده منك هذه الشابة؟ ومنذ متى وأنت تعرفها؟

وما دامت لا تشك بشيء، لا يضطر إلى المراوغة، ولا إلى أن يحيد بنظراته بعيدا عنها. ولا يلبث أن يتوقف رعبه، فيستسلم للنشوة التي يعد بها اللقاء.

وفي المساء، ورغم أنه لم يقع على شيء مما يخشاه، حاذر أن يخرج إلى الشرفة، وقاوم رغبة عارمة تدفعه إلى الوقوف فيها، فهل يمكن أن يُعزى ذلك إلى الإحساس بالخطر؟.. هل كان يخشى أن يُضبط متلبسا، فلا يعرف كيف يتنصل من التهمة الشائنة حين تسأله كارين ماذا تفعل عندك؟ أو تؤكد قائلة، الآن استوعبت ما الذي يجري وراء ظهري، وفي الخفاء. وهو وإن قدّر أنه يبالغ في حذره، لا يدري إذا ما يبالغ في الاطمئنان!

ولم يغب عنه أن الموعد الذي حدَّدته الشابة يتصادف وغياب زوجته المعتاد عن البيت. إنه يوم سبت، وقد اعتادت كارين أن تقضي المساء خارجا، وفي زيارة للمزينة. وخمن لا يدري لماذا، أن زوجته لن تغادر شقتها كما ألفت، وأنها ستبقى على غير العادة تتربص به. وعقب ظهيرة يوم الغد، وحين لاحظ أن كارين تستعد للمغادرة اطمأن قلبه، وبعدما انتبه إلى قرقعة الباب وهي تغلقه خلفها أطلق العنان لحماسه، ولجأ في فعل طائش إلى الشرفة يُطل منها ليتأكد من مغادرتها المبنى، وما إن تأكد له مروقها منه حتى دلف داخلا خشية أن ترفع رأسها باتجاه شقتها، ويتسنى لها الانتباه لحركته الرعناء.

استسلم للأجواء التي ظل رهنا لها منذ بلغه أن الشابة ستزوره. وأخذ يتخيلها في مروق حتى رآها تقع في أحضانه. وحاول أن يكبح خيالاته، فهو يخشى-وإن بينه وبين نفسه-أن يُتهم بالخيانة أو التصابي، كذلك كلما وجد نفسه مضطرا إلى استحضار عاطفته إلا وشعر بالحرج يُلوّنه ويطغى عليه، فكأنه مضطر أن يبحث لنفسه عن تبرير ما!

وها هو يُبقي على حواسه متيقظة ونافرة، وها هي تدفعه باتجاهها كما يرغب ويريد. ووقف على حالة لم يشعر بها منذ سنوات طويلة تسكنه. ولا يدري إذا ما كان ميتا، وكما يحصل في الأساطير القديمة، ها هو يبعث من جديد على يد أنثى جميلة تُجسِّد فينوس. وإنه لم يشف من موت مهلك عقب نجاح الجراحة، ولكن على أثر تعرفه على الشابة. ولم يُقدَر له أن يعيش ثانية إلا بعد أن استيقظت حواسه والتهبت جوارحه وشعر أنه يتنفس شيئا آخر غير الهواء. ولأنه لا يمكنه أن ينكر أن الشابة هبة ربانية حظي بها في وقت متعسر، فكر أن يهديها شيئا ثمينا، وما يمكنها تقديره. وتصوّر أن لوحة مناسبة يختارها بعناية من بين لوحاته التي لا يزال يحتفظ بها قد تفي بالغرض، وهي ستعرف كيف تحتفظ بها ما دامت تُقدِّر الفن.

وراح يعتني بنفسه فيما تبقى من وقت، مستوعبا أنه لا يمكنه أن يلفت نظرها إلا بما هو متاح، وهو يعرف وضعه، والمهم ألا تنظر إليه كما لو أنها وقعت على جثة تفسخت وفاحت ريحها. وتمنى لو يستطيع أن يُخلِّف انطباعا جيدا لديها، وأخذ يُعدّل ربطه عنقه للمرّة الألف، كما تخلص من النظارة معتقدا أنه يمكنه أن يتدبر أمره دون الحاجة إليها. وأمعن ينظر إلى نفسه في المرآة، واعتبر ما يراه أمامه مقبولا. وكأنه تمكن في لحظة فارقة من أن يتخلص من كل المشاعر المحبطة، والتي ما فتئت تقتحم خياله المفرط في حساسيته. وفي مقابل شباب جسدها كثيرا ما تملكه شعور بالدونية لم يقدر على إقصائه، وما لبث هذا الشعور يوقعه في التردد والحيرة والوهن وفي بلبلة عظيمة، أيضا كان

يقوده إلى العجز أمام الوفرة التي تعنيها له الشابة. وكلما عنَّ على باله جسد الفتاة الغض اغتاظ، ما دام يجد نفسه مجبرا على تأمل جسده منتهي الصلاحية إلى الحد الذي يتمنى فيه لو يحل في جسد آخر ويُبعث فيه. ولأنه يعوّل على التهرب من فكرة الجسد باعتبارها عائقا، يُعلق أملا واهيا على تلاقي الأرواح، وينشد البطولة، والتي سيكون الدور الحاسم فيها لوجوده كفنان.

يأخذ في النظر إلى ساعته قبل الوقت المضروب. يشعر بتوتر أكبر حين تدق الساعة الثالثة ولا يطرق باب شقته أحد. يتساءل لجوجا، هل يكتفي بالعصير أم يعد لها القهوة أيضا؟ ويدخل إلى المطبخ فيحمل صينية العصير ويتوجه بها إلى الصالون، ليضعها على الطاولة. يحث الخطى باتجاه الشرفة، ويرنو إلى شرفتها التي لا توحي بأي حياة، ثم يطالع الشارع فقد يراها تمرق مع العابرين باتجاه مدخل العمارة. ويركن أغلب الوقت في الرواق مخافة ألا ينتبه إلى دقها على الباب أو يسمع الجرس. ويقترب من الباب نفسه ويضع أذنه عليه منصتا إلى أي حركة عابرة تشي بقدومها، فلا يقع على شيء. وتراوده في أكثر من مرّة رغبة ملحة في فتح الباب نفسه والنظر عبر السلالم عساه يكتشفها هناك. وبعد نصف ساعة ينتهي إلى الإقرار بأن الشابة لن تحضر، ولعله أعاقها طارئ ما. وفي اللحظة التي يداهمه فيها صوت باب المصعد وهو يغلق، يهتف في قلق، قد تكون هي؟ ويستبشر. ولما يعقب جرس الباب الخطوات المرسلة في الرواق يقفز مذهولا فكأن موعدا له مع القدر يتحقق. ويباغته وهو يفتح الباب شاب ثلاثيني يقف أمامه يكاد

يسد المجال، ولا يسعه أن يتخفف من روعه، ولا أن يدرك ما يحصل معه، إلا حين يلمح الشابة إلى جانبه تبتسم له في حبور.

تُبادر بالتقدم. ويتلقف يدها الممدودة إليه بعد يد الشاب الذي يصافحه بحرارة مبالغ فيها. وتتلاقى الأكف في ودٍّ تظلله سحابة وتكاد تحجبه لولا العناد.

يفسح لهما المجال ليتقدما داخلا، وفي الصالون تشرح له الشابة:

- إنه خطيبي. ولم يكن من الممكن أن أحضر دون علمه. استشرته ووجدته مرحبا، ولقد تمسك بالموعد هو أيضا وتحمس له بعدما سمع باسمك وعرف من سألاقيه.

يؤمِّن الشاب على كلامها، فيلمس نبرته الحاضرة بقوّة. ولأن لها فعل المنبّه، لم تكن تسمح له بالاستسلام لحضور الشابة الطاغي، وما يمكنه أن يبثه فيه من انفعالات واختلاجات. ووجد أن الأمر على هذه الشاكلة يُشقِيه، ويمنحه شعور من وقع في الأسر. وهو مهما مدَّ يده فلن يتلقف غير السراب والوهم.

مع ذلك ها هي في شقته، وها هنا أمامه، وعلى بعد شبر منه. وإنه يحظى بها هذه المرّة ليس بالصورة التي صادفها بها في المحل ولا على الشرفة. وجلي أنها حرصت على العناية بهندامها مع بعض الكحل في عينيها وأحمر الشفاه. وخطر له خاطر لئيم. هل تزينت لأجلي؟ ثم لا تلبث أن تقع عيناه على الفحل الذي جاء بصحبتها، فيتساءل مفجوعا، هل هي تخشاه إلى الحد الذي تنشد فيه حماية ما؟ أم أنها تخشى رد فعل خطيبها حين يعلم أنها زارت أحدهم في شقته بمفردها؟ وهل

كانت تريد للقاء أن يمضي في شكله المرسوم له، ودون أن يحيد ولو قليلا عن سكته؟ أم أنها والشاب متواطئان، وهما هنا ليمتحنا سنه، ويتسليا برغبته، دون أن يتسنى له أن يكشف ما بينهما من غمز بيّن؟ وفي هذه الحالة هل يكون قد خُدع؟ أم أن في الأمر لغزا ما، مكيدة تتجاوزه؟ لكن الفتاة وعدته بالزيارة لمحترفه، ولم تقل أبدا أنها ستأتي لأجله أو لوحدها، فما الذي يدفعه إلى الشعور بكل هذا السوء؟ وإن في مجيئها بصحبة الشاب تصويب لكل سوء فهم قد ينجم إزاء هذا الوضع المربك. ولعلها حدست تخميناته الخبيثة، التخمينات نفسها التي يمكنها أن تقع عليها عند المراهق والشاب الذي يماثلها في السن وعند الشيخ العجوز، ومن ذاك راحت تعمل على تحصين نفسها ضد أوهامه وضد كل انتهاك يتهددها. وما يحصل الآن دعوة صريحة إلى أن يستفيق مما هو رهن له، والواقع هنا ليس أبدا الأحلام التي ظل يتخيلها.

يتبدل شعوره بالفرح إلى إحساس بالسوء. ويجاهد، وهو محشور في مصيدته، كي يبتسم لهما رغم المشقة. ويتوطّد شعوره بالضيق وبأنه محاصر ما دام ليس هناك أي مجال للمناورة. وسيمر اللقاء مثقلا بالرسميات حتى يخنقه. وفي غمرة هواجسه الطارئة يبادر إلى فعلٍ يداري به ارتباكه وانزعاجه. ويحاول أن يصبّ لهما شيئا من العصير، لكن الشابة تقوم بنصف حركة، فتأخذ القارورة من يده وتصبّ للجميع. ولعلها انتبهت لضيق حركته أو حاولت المساعدة بدافع برستيج عام، ومن النباهة أن تفعل ذلك.

أخذ الجميع رشفة واحدة وبالقدر نفسه، ثم عادت الأكواب في وقت متزامن إلى الصينية، ومثلما يحدث في المسرح لم يبادر أي منهم على الخروج عن النص أو الدور الذي أسنِد له، وظلوا ملتزمين به حرفيا. وكان واضحا أن مسحة من الكآبة أخذت تُغلِّف اللقاء. ولعل هذا يحصل من جانبه فقط لفرط خيبته، ولعله يحصل من جانب الشابة والشاب بدافع الحرج، ومن فرط ثِقل يقعان تحت طائلته، ما داما أنهما مضطران إلى التعامل مع غريب عجوز في شقته.

يناور راسم دفعا للإحراج، فيسأل الشاب:

- ما هو مجالك؟ ماذا تعمل؟
- حاليا أشتغل محاسبا في بنك.

لا يذكر اسم البنك، ويتصرف راسم وكأنه لم ينتبه. ويتساءل، ما الذي يمكن أن يفهمه محاسب في فن الرسم، وما الذي يغريه بزيارته في شقته؟ وهل من الممكن أن يكون هذا الخطيب يخشى على فتاته منه، فآثر رفقتها؟ وأما الشابة فتبدو متحررة إلى الدرجة التي لا يمكن فيها أن تهتم لهذه الاعتبارات. فهل هناك ما يفوته؟ أم تراه اجتذبه اسمه اللامع، فسعى لأن يصادفه ويقعد في حضرته؟ لكن من ذا الذي يهتم لاسم فنان رسام؟ ومَن يذكره كاسم لامع، خصوصا في بيئة نادرا ما تُصادِف فيها من يهتم من خارج المجال؟

لن يُعتقه، ويندفع يوجّه إليه سؤالا آخر.

- وهل تهتم للفن أيضا؟

- كثيرا. ولطالما اعتبرته رئة العالم. إنه ما نتنفسه، ولهذا أجد أنه من الطبيعي أن يهتم به الجميع.

لا يدري من أين استعار هذه العبارة. تبدو مطروقة. وواضح أن الشاب يحاول أن يترك انطباعا إيجابيا لديه، مع ذلك يفضحه تعاليه. والأكيد أن مثله لم يتسن له الوقوف أمام لوحة أبدا!

وغير ذلك، فيم عساهم التحدث أكثر؟ وحين يركنون إلى الصمت، تحاول الفتاة أن تنقذ الموقف، فتعلن في لباقة وشغف:

- لا أقدر أن ألجم نفسي، وأصطبر أكثر. هل يمكنك أن تعرض أمامنا لوحاتك. بعضها على الأقل؟

تُذكّره حتما بوعده. وأمامه وعلى الخِوان تركن لوحات إلى بعضها البعض، وكان قد حضّرها من قبل للعرض. يتوجّه صوبها، ويبدأ الاحتفال الذي لا يدوم طويلا. يحمل لوحاته. يقربها ناحية الضوء. يعرضها الواحدة تلو الأخرى، فيتأملانها القدر الذي يسمح به راسم. تبدي الشابة إعجابها، وكذلك يفعل الشاب. وعلى عكس ما كان يتوقعه في وقت سابق لا يمنحه الإعجاب أدنى شعور بالانتصار؛ ثم لا يلبث الشاب أن يردد:

- هل هذا كل ما لديك؟

وكأنه يرغب في المزيد!

أمامه لا يبدو متحمسا، لكن الشابة تفاجئه:

- أين مرسمك؟ بي رغبة في أن أراه، ولن تكتمل فرحتي إلا به.

يتردد للحظة قصيرة، ثم يحسم أمره. يقودهما إلى محترفه. غرفته

التي في آخر الـرواق. يطرقانها بحـذر. هنـاك لوحـات أخـرى مركونـة في الزوايا في فوضى يستعرضها أمامهما سريعا، وهنا فقط يلاحظ أن الشابة قد أشرقت. واضح أنها وقعت على عالمها الأثير. يسـمعها تهتف وهـي غير قادرة على السيطرة على نفسها:

- هذا كنز حقيقي.

وفي أثرها يأتيه صوت الشاب جافا بشكل لا يصدق:

- إنه كنز لا يقدر بثمن.

لا يـدري لِـم يفقـد الثقـة في موقفـه مـن الزيـارة. يشـعر بأنـه ضـحية لعبــة.. اســتغفال.. مكيــدة.. مصــيدة.. ســخرية.. يشــعر بالانتهــاك وبالقسوة. موجع ومؤلـم ما يحصل. كيف سـمح لهـا أن تعبـث بـه، وأن تُحضِر صاحبها ليكون شاهدا على مهزلـة سقوطه. مـاذا لـو كـان هنـاك مسجلة مخبأة في حقيبتهـا أو جيبه؟ مـاذا لـو أذيـع مـا جـرى بينهمـا مـن حـديث؟ في زيارتهمـا لـه مـا لا يفهمـه، ويبـدو أمامهمـا تائهـا كمـن فقـد البوصلة والوجهة. وكَمْ تذوّقَ من هزائم عديـدة، لكنـه لأوّل مـرّة يشـعر بالإذلال. ولأجل ذلك يجد نفسه حانقا، غاضبا من نفسـه ومـن الشـابة. وبسـبب هـذا صـارت التجربـة التـي لـم يطلبهـا، واعتقـد أنهـا هبـة مـن السماء، مجرد عالة. شقاء إضـافي. وتخلـو مـن كـل مزيـة. وكمـا لـو أنـه يحضر عرض فيلم لا يقدم أي متعة، اعتقد أن زمن العرض قد طال إلى الدرجة التي لـم يعـد فيهـا محتملا. لـم يبـق هنـاك مـا يستحق، ويجب إشـعال الأضـواء، وفـتح الأبـواب، ودعـوة الحاضـرين إلـى المغـادرة، وليفعلوا ذلك بهدوء وروية.

يختنق بِغضبه ويحتقن وجهه عندما لا يعرف كيف يصرف الضغط الـذي يغشـاه. وأمامهمـا يـدعي أنـه يشـعر بتوعـك طـارئ ويرغـب في الراحة. يلاحظ بلبلتهما. يخبرهما ألا يهتما. فقط عليه أن يرتـاح قليلا. وتبـدي الشـابة والشـاب تفهمهمـا، فيتوجهـان إلـى البـاب اسـتعدادا للمغادرة. وبعد خروجهما يسير إلى غرفـة نومـه مترنحـا ومثـل سـكير، وعلى السرير وبكامل هيئته يتلاشى كقتيل أردي بطلق ناري.

لما يستعيد وعيه يكون ضوء النهار اختفى، ولا غير غبش منه يناور مطلا من نافذة غرفة النوم. ويبلغه صوت باب الشقة يُفتح ثم يغلق محدثا صخبه المعتاد. لقد عادت زوجته. وفي هذه الأثناء يحاول أن يسوي وضعه ويمسح عنه آثار الخيبة حتى لا يفضحه شيء، وأما الإنهاك الذي يشعر به فلطالما لازمه، وخصوصا في الفترة الأخيرة، وهو لا يستطيع عمل شيء حياله.

لا تلبث كارين أن تفتح نور المصباح. هكذا يجد نفسه مغمورا تحت الضوء. تُسلّط عليه نظرها قبل أن تسأله:

- هل كل شيء على ما يرام؟

يرد:

- بعض الإرهاق.
- وهل حضرت ضيفتك؟
- جاءت برفقة، وقد غادروا قبل قليل.

إلى جاكوب ستيرن
الجزائر-الأبيار

25، مارس، 1975

"عزيزي جاكوب، أعلم أنك لا تدري شيئا عن أخباري، مع ذلك أحب أن أضعك في الصورة دائما، وأطلعك على كل جديد يحدث معي، فليس لي غيرك لأشاركه أفراحي وخيباتي.

لقد حصل معي، وفي ظرف أسبوع واحد الكثير، حتى إني وأنا أرغب في أن أحدثك عنه لن أعرف كيف أوجزه، مع ذلك سأحاول الاختصار ما استطعت لأجل ألا تكرهني.

لقد استُهِل الأسبوع بزيارة الشابة، التي سبق وحدثتك عنها، لي في شقتي، وتصوّرْ أن الزيارة تمت في غير حضرة زوجتي كارين، مع ذلك لا تدع خيالك يشطح بعيدا، لأنه لم يحصل بيننا شيء يستحق، ما دام أنها حضرت برفقة خطيبها، أو شخص اصطحبته معها وقدمته لي على أنه كذلك.

ثم ما الذي كان من الممكن أن يحصل في هكذا ظروف؟

لقد جُزيت بخيبة كبيرة. وأمام الحيرة العظيمة التي انتابتني غادرتني كل أحلامي التي أفرطت فيها واستسلمت لها طواعية، وبدلا

عنها حلّت وساوس مربكة ومخيفة لم أعرف كيف ألجمها.

جمح بي خيالي بعيدا، فاستحققت الضربة التي نلتها وأتتني على دماغي، وإلى اليوم لا يمكنني أن أدعي أني تعافيت منها. وإذا ما أردتُ أن أعترف وأكون أكثر صدقا فسأقول، إني لا زلت أعاني من الارتجاج، دائخا وبالكاد يسعني أن أرى أمامي. ولأني لا أزال ضحية لها، هذه العلقة، سأعتبرها السبب الأكبر الذي يدفعني الآن لأن أكتب إليك.

لا أفتأ أتساءل، هل تعمدتْ العبث بي؟ أيضا ماذا كانت تبغي من وراء هذه المسرحية التي لم تحبك خيوطها جيدا، لتترك خلفها ألف سؤال وسؤال؟

يا لجرأتها، وهي تقتحم علي بيتي!.. يا لوقاحتها، وهي تسحب معها من أسمته خطيبا!.. يا لضعفي أمامها، وأنا أتقبل كل ذلك صامتا صاغرا وذليلا! وكأني ظللت مأسورا بشهوتي، مكبلا بها. شهوة رجل موغل في العمر تطورت عبر الزمن، وتلوّنت كالحرباء، وخضعت لواقعها الجديد، فلم يكن من الممكن أن تأتي إلا على هذا الشكل، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلا على خيبة!

قبض الريح إذن، وإحساس بالخواء يغمرني يعقبه يأس قاتل لا أذكر أني جرّبت مثله من قبل. وكم هي المرات التي سقطت فيها، لكنني ظللت أرتفع دائما بعد كل سقوط. وسابقا حُزتُ جَلد المحارب وقواه، وأما اليوم فما عاد في جُعبتي ما أقاوم به. لم تبق لي غير الأنفاس، وها أنا أحررها وأصرفها كآخر رصيد أملكه. وأمام هذه المعضلة الكبرى أخشى أن أهوي، وأن تسمع قريبا دوي سقوطي. ما

كنت لأحب ذلك وما كنت لأعوّل عليه أو أختاره، وأعتقد أني مُسير في هذا وغير مخير، ومنوّم وكمن يمشي خلال نومه، وأعي أنه من المفروض أن أستيقظ من الحلم، أو ربما على أحدهم أن يقتحمه علي عنوة، وإلا فإني لن أستفيق أبدا، وسأتوه معلقا ما بين السماء والأرض.

يزعجني هذا الخمول الذي أنا فيه، كما تأسرني ذكرى الشابة وزيارتها الأخيرة لي في شقتي، حتى أراني أسأل في حيرة وتوجس، ماذا تراها تفعل الآن، هذه الكريهة، المأفونة، اللعينة؟

بت أحقد عليها كما يبدو. أحقد عليها لأنها تسببت لي في هذه المعاناة. معاناة كنت في غنى عنها لولا أني تماديت كفتى طائش يريد ما ليس له. وقد يكفي ظهورها ليبدد الغيم الذي يحوطني، ويجعل سمائي تستعيد زرقتها وألقها؛ لكنها لا تروم الظهور، فيصير اختفاؤها وكأنه القدر في غيّه وتماديه، بعدما انتهت إليه قصتنا. وكثيرا ما نطمح إلى الحياة فيما هي تدخر لنا شيئا آخر.

هل تعتقد أنها تتعمد الاختفاء، وتهرب مني عن قصد؟ وإذا ما كان هذا غرضها، فما الدافع؟ إنها تبالغ في إثارة لهفتي وأشواقي، وما يتملكني الآن جزع لا أقوى على مغالبته، فهل أنا أعيش قصة حب من طرف واحد؟ وهل هذا ممكن في هذه السن؟

لا يمكن لهذا أن يحصل. ليس من باب المكابرة، ولا من باب رد الاعتبار لسني. ومستعد لأخلِّف كل شيء وراء ظهري من أجل أن أستعيد نفسي، وكذلك كنت أفعل قبلا. أرمي بأحمالي ساعة أشاء، وأنصرف إلى الحياة مجددا، لولا أن هناك هذه المرّة ما يكبحني ويعيقني بشدّة.

كنت جريئا في آخر زيارة لي إلى الكشك التي اعتدت التعريج عليه؛ فبعد أن ابتعت جرائدي ونقدت صاحبها ثمنها، سألته عن الشابة.

وضّحت له أنها، مثلي، كانت تحضر إلى كشكه كل صباح لأجل الجرائد، وحاولت وصفها له. ذكرت له أيضا أني وقفت معها أمام الباب مرّة وتحدثنا مطوّلا، ولا بد من أنه قد لاحظ ذلك.

ادعى أنه لا يمكنه أن يتعرف عليها. وقال وهو يحرك يده اليمنى أمامه مستعينا بلغة الإشارة لتوكيد معنى واحد لا يحتمل أي تأويل:

- أرجو أن تعذرني، يحل بكشكي كثيرون، ولا يمكنني أن أتذكر الجميع.

لم يتضمن كلامه ما يستفز، مع ذلك غضبت منه. وما كنت لأغضب لو لم أكن متوترا. واضح أن العلّة في بكل تأكيد، وإن لم يخف علي أنه يتصرف معي بنزق. فهو لم يبد أي اهتمام، وإن حاول أن يدفعني إلى الشعور بعكس ذلك.

التفتُ وغادرت، فلا مجال؛ وأما الانطباع الذي خلّفته لديه فليس يهمني.

لا أزال أسعى لأن أعثر عليها بأي طريقة ممكنة. أراهن على لقائها من جديد، وأرغب من خلال ذلك أن أضع النقاط على الحروف، حتى إذا تسنى لي ذلك أمكنني بعدها أن أتجاوزها، وأن أترك كل شيء خلف ظهري، وأتعامل معه كما لو أنه لم يحصل.

وأما الآن فإني أفكر فيها بشكل محموم وغير معقول كمن لم يستوعب بعد ما حدث بيننا. وكأن هناك ما يفوتني ولا أفهمه! وربما

مرد ذلك أنها من سعى إلى تجاوزي بالاختفاء، مخلفة وراءها لقاءً لم أفهمه وإن ظللت أقلِّب فيه ليالٍ.

غالبا ما يزعجني أن ما حصل لم يحصل على طريقتي، ولا بالشكل الذي ألفتُ أن تسير وِفقه الأمور. إنها هي من قام بمغادرتي، وكنت قد اعتدت، وفي ظروف مواتية، أن أبادر أنا بالهرب والهجران. أو لعلنا لم نبلغ بعد تلك اللحظة التي يمكن فيها أن يتجاوز أحدنا الآخر، ولهذا بقيت أنتظر، وكأن هناك ما سيقع تاليا. وكل ما أرجوه أن يهادنني كلٌ من عقلي وقلبي فيسعفانني ولا يسيران بي إلى التلف. أخشى أن أفقد أحدهما أو كليهما في غمرة الانتظار الذي استطال بلا معنى؛ ثم هل كان لهذه القصة-أصلا-أي معنى؟.. حقا، لا أكاد أنتبه، ومهما تأمّلت لا أقع على شيء من ذلك، وأما أن أعيش على أمل ما فتلك قصة أخرى!

لا شك أني لا أزال أقابل هذا العالم بمزيد من البراءة والسذاجة حين أدعي قدرتي على فهم الآخرين وتوقع أفعالهم أو ما يريدونه مني، ولا بد أني لما أعمد إلى تحليل أسبابهم ودوافعهم أنتهي كمن يهيم في واد ناء بعيد، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بأولئك الذين لا يشبهونني، وليسوا من جيلي. جيل لاحق لا أملك الأدوات التي تُخوِّل لي الحكم عليه، فتطلع كل حدوسي وتكهناتي خائبة. وكثيرا ما أوغلت في العزلة، واستغرقت فيها، وإن كانت وليدة طبيعتي كفنان. وهي كما أكسبتني حصانة ووِقاء، جعلتني أنسلخ عن هموم الأجيال وتطلعات أولئك الذين جاؤوا بعدي أو ولدوا عقب الاستقلال.

أشعر بطعم الخسارة الفادحة، وما أفهمه أنه لم يعد باستطاعتي لملمة أي شيء مما ضاع مني، ومع ذلك أصر على المحاولة تمسكا بالحياة ورفضا للسقوط في لعبتها السمجة والاستسلام.

أحاول أن أظهر أكثر تماسكا، صلبا كحجر، وأن لا أقبل بالفلسفة تقتحم حياتي. ومتى رأيتها تتجنى بفرض منطقها علي ورفض مشيئتي، عاركتها حتى لا أبدو سهلا وفي متناولها. ومن غير المعقول مثلا أن أبدو خاضعا لها، وهي تدعي أمامي في بهتان ومن غير شفقة، أن الحياة، كل الحياة، تحدث مع الشباب في المستقبل، بينما هذه الحياة نفسها تصير للعجزة مثلي قد حدثت في الماضي. وكأنها بذلك تريد أن تؤكد لي في طغيان أنه ما من طموح بقي لي بعدما تجاوزني قطار العمر وتم هرسي، وليس لي غير أن أفتح كتاب الذكريات، وأن أعيش ما تبقى لي من أيام على ضوئه، زاهدا في كل شيء.

إن هناك ما يغالبني. وأجدني مدفوعا بقوّة خفية إلى ألبوم الصور مقلِّبا فيه، ومسترجعا ذكريات بعيدة ومواقف حصلت معي، أتعجب كيف أن بعضها نسيته تماما. أنكفئ على نفسي متشبّها بأولئك العائدين من لعنة حرب لم ينتهوا فيها، لكنهم خلالها خسروا كل شيء. وأنا إذ أستعين بالألبوم أكون كمن لم يجد ما يفعله خلال أيام أراها مغرقة في الضحالة، وأكثر رتابة ومللا، فتعلوني حينها ابتسامة واهنة، ويغشى داخلي حزن لا أفهمه. وكل ما حولي أجده خانقا، ويدفع بي نحو يأس قاتل، وما من سلام!

أعود إلى موسيقاي أيضا، وكلما استطعت. أنصت إلى هايدن وباخ وشومان وبتهوفن وموزارت وتشايكوفسكي، وعندما أعرِّج على

تراثنـا لا أجـد أمـامي إلا الحـاج العنقـة، ابـن القصـبة والحـي الـذي ترعرعت فيه. أستعيد أغانيه وعزفه على آلة البانجو أو العود بمزيـد مـن النشوة والوجع.

أكـافح ضـد الغـرق، وأجـرب أي شـيء لأجـل أن أبقـى طافيـا. استسلم لإيقاع المعزوفات والألحان تتهادى، وفي غمرتها أتلاشى حتى أضيع، فـلا أعـرف أيـن أنـا. ويطـوّقني الفـن، فـأعرف في حضـرته بعـض الراحة، وحين أستفيق أشعر أني تخففت مـن وهنـي والثقـل الـذي يظـل يغشاني.

لا يدوم ذلك إلا للحظات صغيرة، فعندما أستعيد واقعـي ومـا هـو حولي يداهمني التفكير، وتأسرني الدوّامة نفسها مـن جديـد. وفي لحظـة عابرة أفكر في تدخين الحشيش. أريد أن يتيح لي النسيان، أن أنسـى أيـن أنا. أن أنسى اسمي وتاريخي ووجودي كله. أن أتلاشى بعيدا وحيث لا يعرفني أحد ولا أعرف أحدا، وحيث اللاشيء؛ مع ذلك أعرف أنه متى كان المرء وحيدا لا يسعه عمل الكثير. وأجزم أني لـن أتحمـل وضـعي هناك، وأني لن أقوى على الصبر. وحدها العُصبة ما يمنح المـرء الـدافع والقوّة، وكثيرا ما تُورث الوحدة العجز، ولهذا أنا الآن أستوعب عجزي تماما، وبالكاد أعترض عليه.

أجاهد لطمس يقظة هـذا العقـل الحـرون، ولا بـأس أن أبقـي علـى بعـض حواسـي متيقظـة حتـى لا أصـير أعمـى تمامـا وبـلا روح. أحـاول أيضا أن أستوعب تلك الحساسية المفرطة والتي أقابـل بهـا الأشـياء مـن حولي، وأنتشي مـا اسـتطعت بغيـر الموسـيقى أيضـا. ألـوذ خـلال تيهـي

بالكتب، وأمعن القراءة فيها. أقترب من عالم المشاهير ممن طالعت قصصهم سابقا وتعلقت بهم، فان غوخ وإيغون شيلي وبيرون وآخرين. أعاود القراءة لأرى كيف قاسوا ما أقاسي منه أنا اليوم، وأقارب معاناتي بما عانوه، وأنتصر في النهاية للجميع، فلسنا إلا ضحايا عواطف غالينا فيها وأقبلنا عليها في تهوّر نادر، وعلى أثرها قد يداهمني النزق في أي لحظة، لأرتد إلى أسوأ وضع، فكأنه لا ينفع معي شيء. كما يمكنني أن أعترف وأقول إني من فرط خيبتي والتيه، عدت إلى الرسم. لذت به، واستغرقت فيه باندفاع دون أن أدعي أني حققت ما يستحق. أجهدت نفسي، ولم أجن غير الفشل والمرارة. لم أكن معنيا في أي لحظة من ذلك بالنتيجة، وكل ما كان يهمني الفعل، وفي غمرته استرجعت بعض الإرادة، وإن انتهيت إلى حالة من البؤس رهيبة، خصوصا وأني بالكاد بت أعرف النوم، ولم أعد أسقط فيه إلا حين أستعين بأقراص منومة، تحيل كل استفاقة بعدها إلى ما يشبه حالة رجل مخدر، حتى خلتني أفكر كأبله، وكرجل بنصف ذكاء لا يشبهني.

لقد داهمتني من شدّة الإنهاك والتعب حمى رهيبة أقعدتني الفراش لثلاثة أيام كاملة. وأما كارين فبدت مرتابة إزاء وضعي، ولم يرتح خاطرها حتى زرنا مستشفى مصطفى باشا، وخضعت فيه للمعاينة والتحاليل التي طلبها الطبيب المشرف على حالتي، والذي أكد أن نوبتي لا علاقة لها بالعملية التي أجريتها، ولا بقلبي المتماثل للشفاء، لكنه أصر أن أهتم أكثر بنفسي وأخلد للراحة، ولا أبذل أي جهد مكلف، كما طلب مني أن ألتزم بالدواء الجديد، وأمَر بأن أعود له بعد

عشرة أيام لإجراء معاينة جديدة؛ وأظن أني سأجده هناك وفي موقعه كطبيب هو وطاقمه من الممرضات بعد عشرة أيام أو بعد عشر سنوات إذا قُيِّد لي أن أعيش كل هذه المدّة.

هل يمكن أن يكون يشبهني، وأقصد الطبيب؟

غالبا لا. وقد يسوءني الحال ويستفزني حدّ الإثارة هذا الجواب الجازم والقطعي، ولهذا أعمد إلى المناورة، وأسأل نفسي، كم بقي له ليكون طبيبا ممارسا؟ وماذا سيحل به بعد التقاعد؟ وماذا جهَّز لتلك اللحظة؟ وهل يملك من الخطط ما يُغنيه خلال حياة أخرى لا يصير فيها طبيبا؟ ثم كيف يسعه أن يقدِّم نفسه للآخرين حينها، وهل يقول، إنه طبيب سابق؟

أن تكون طبيبا ثم لا تكون، أظنه انتقال من الوجود إلى العدم. ثم إنها نفس مشكلتي، مشكلتنا نحن العجزة جميعا.

لا حل إذن، ولا أمل. لتبقى الحياة، حياتنا، مجرد حجر ينتظر العناية الإلهية أن تحمله وتقذف به إلى عمق المحيط حيث الظلمة والبدد. وفي غمرة ما أنا فيه أجد كارين تتحمل هذا البؤس بصمت وبمزيد من المثابرة والإخلاص. وليس عجيبا منها ألا تبدي ولا مرّة تذمرها، فقد اعتدتها مُصابرة ومكافحة، وإن كانت لا تستطيع أن تخفي عني كآبتها وحزنها. وما يسوءني أكثر أنه ليس باستطاعتي فعل أي شيء لكلينا. ولأني عالق لا أريدها إلا أن تبقى بعيدة عني، حتى لا يحصل وأسحبها معي إلى هوّتي، فتصير العودة مستحيلة. وأما حين تعزم على الذهاب إلى كنيستها، وقبل أن تخرج، أوّد لو أندفع إليها وأشدّها من

ذراعها وأمنعها، لكني لا ألبث أن أتراجع في اللحظة الأخيرة. لا أقوى وأجبن. وبعد أن تغادر البيت يزداد جزعي وأبقى أشد على قلبي متوجسا، ولا أطمئن حتى أراها تعود سالمة. وقتها أستعيد بعض هدوئي، وأنظر إليها وأبتسم، وفي سري أتمنى ألا يكون هناك ما يستحق كل هذا الجزع والخوف عليها.

إنها غالبا ما تكلّف الخادمة العناية بي في غيابها، وأما أنا فلا أرتاح لذلك. أشعر بأني مراقب، ولست على سجيتي. ولهذا نادرا ما أنادي على عايشة لِحاجة، وإن تفضل هي أن تبقى قريبة مني حتى تقدر على الاستجابة لي متى احتجتها. وخلال مرضي شعرت بثقلها، فهي تبدأ ما إن تخرج زوجتي الغدو أمامي في كل حين، محاولة من خلال ذلك أن تذكِّرني بحضورها. ومن فرط انزعاجي منها أود أن أصرفها في الحال، لولا أني موقن من عنادها، وأني بسببه سأدخل معها في مهاترات لفظية لن تنتهي أبدا. وأنا وإن كنت أقدِّر إخلاصها لعملها، إلا أني لا أحبذ أن أراه كواجب تؤديه. مع ذلك لا أتصورها تشكو من الأمر، بل حتما يسرها أن تحظى بخدمتي. هكذا تشعر أنها أدّت عملها كاملا، والمرجو منها.

أحتاج إلى فترة نقاهة. هذا ما أفكر به حاليا، وقد أقول إني تجاوزت التفكير إلى بداية التخطيط.

تكلمت مع كارين في الموضوع. لم تبد حماسا كبيرا، لكني لاقيت عندها الاستعداد والترحيب. تعتقد أنها أيضا بحاجة إلى التنفيس وتغيير بعض الجو.

أرغب بدوري في الهروب والابتعاد عن كل ما هو حولي ويتسبب في خنقي. أحتاج أكثر إلى هواء جديد، وأن أستعيد نفسي على مهل في مكان بعيد وهادئ. فكرت في النزول بجبال الشريعة لأيام قبل أن تنبهني كارين أنه لم يتسن لنا ولا مرّة القيام بجولة في الصحراء الجزائرية. وحين عرّجت على وكالة الأسفار لم أجد كمكان مناسب ومتاح غير مدينة غرداية. أظنها مع ذلك مدينة تستحق. عشرة أيام أو أسبوعان أكثر من كاف، ولم لا أستمر هناك لشهر إذا ما راقني المكان ووجدت حجزا مناسبا. شقة للكراء أو ما شابه. ولا أدري عن ذلك الذي يراقبني ويقتفي خطوي وأثري إلى حيث أذهب، إذا ما كان سيصحبني خلال السفر. سأمكّنه حينها من أن يعيش عطلة لم يحلم بها، وسيكون محظوظا، وأنا مثله لما أفوز بدعواته المخلصة، وإن لا أدري إذا ما لمثل هذا النوع من البشر دعوات يُستجاب لها وتتحقق!

لن أسافر قبل أن ألقى باية فنانتنا، وألقى زوجها الموسيقي الحاج محفوظ. تلقيت منها ردا على رسالة كاتبتها فيها معاتبا، وجاء محمّلا بكل قيم التسامح والمحبة. صحيح أنها لم تكلِّف نفسها، وردّت بعبارات مقتضبة وموجزة، لكن لا يمكن إلا لجاحد أن يتغافل عما حملته من معاني ودلالات. بدورها حاولتْ أن تكون واضحة وشفافة. كما فنّدت مزاعمي، وكذّبت أن يكون زوجها مستاء مني ويحمل لي أي ضغينة كما سبق واتهمته، وربما وجدتني قاسيا عليه أكثر من اللزوم. وأنا إذا ما وقفت أمامهما فسأبادر بالاعتذار، فوحده التسامح ما يجعل الحياة ممكنة.

خلال مرضي الأخير وصراعي مع الحمى انتبهت إلى أنني أذوي كلعنة، وما مسني من إحباط وترد خلاله لم ألمسه عقب الجراحة ومرض القلب حتى خِلت أنها نهايتي.

كنت كمن اقتنع بأنه خسر كل حروبه وليس عليه غير التسليم في إذعان؛ مع ذلك ففي أعمق أعماقي ظل هناك شيء يقاوم. شيء ربما لم يشأ أن يعترف بالعجز، لأنه لم يرني يوما عاجزا، ولم يصدق أن تكون كذلك نهايتي. وربما الموت نفسه ما أخذ يلفظني باتجاه الحياة التي أريد أن أتخلص منها مقتا فيه. وكان علي ألا أبتئس حتى عندما كلّمني الصحفي الشاب الطاهر جاووت، وأخبرني أن مجلته الأسبوعية وبعد مماطلات عديدة رفضت نشر الحوار الذي أجراه معي. وربما توقع مني انفعالا ما، ولأنه لم يقف عليه واصل يقول، إنه مستاء لأنهم لم يرفضوه لجراءة فيه أو لعيب، وإنما يعتقد أن هناك أمر فوقي لا يفهمه. وبعد اعتذاره لي، اعتذار مُطنب لمست فيه خجلا وحيرة، كشف لي أنه قدم استقالته، وأكّد لي أنه بصدد البحث عن مساحة جديدة من الحرية، وقد تلقى عرضا للانضمام إلى الملحق الثقافي بجريدة المجاهد، وهو بصدد دراسته.

لم أتأسف للحوار. ليذهب إلى الجحيم. وربما أحسنوا لي بفعلتهم هذه من حيث لا يدرون. والحقيقة أنه إذا ما كان هناك ما يجب التحسر عليه فهو هدر مثل هذه الطاقات الشبابية في حسابات ومتاهات لا أحد يفقه فيها شيئا. وما أتمناه أن أسمع قريبا أخبارا تسر عن هذا الفتى الطامح، والذي يمثل وجه بلدنا المشرق.

وفي الأخير، وقبل أن أنهي هذه الرسالة، أريد أن أدعوك إلى أن تتخلى عن مخاوفك إزائي. عمر الشاقي باقي، فلا تخشى على صاحبك، ما دام لا يزال متعلقا بالعيش. وها أنا أستقيم الآن، وسأعاود الانطلاق في أقرب فرصة كثور أعمى هائج يروم الحياة بقوة في حلبة الكوريدا مرحبا بكل تلك الطعنات الخائبة والتي تأتيه في ظهره. وقديما كانوا يقولون الضربة التي لا تسقطك تقويك، وها أنا أراني أقوى.

إن من يملك في قبضته بقية من حياة مثلي، لا بد وأنه يملك معها الحظ أيضا. وربما حان الوقت لأعوّل عليه لأجعل غدي مختلفا، وفيه ما يشبهني ويشبه عبق أشواقي وأحلامي. ومن ذاك يمكنك أن تراني كيف أحاول لملمة أعطابي في آخر العمر، وكيف أجعل منها زوّادتي. صحيح أن قلبي منفطر، لكنه استطاع في كل حروبه أن يفوز بما هو نادر، وسيظل ينشد ما يستحق. وصحيح أنه معطوب، لكنه يبقى على قيد الحياة، صالحا لها ويرفض الاستسلام.

عزيزي، أعي أني أكاتبك بوتيرة متسارعة، وإلى الدرجة التي لم تعد قادرا معها على ملاحقة بريدي، مع ذلك لستَ مضطرا أن تكاتبني إلا متى سنحت لك الفرصة، ولم تجد ما يشغلك.

تقبل تحيات صديقك الذي يحبك دائما، محمد راسم"

الرسالة

التاسعة

العجيب أنه لا يتذكر شيئا من التفاصيل التي من المفروض أن تقع قبل أن يحدث الالتحام. لا لون عيني الشابة اللتين لا يزال مفطورا بهما، وحصل أن تلقفهما أوّل مرّة حين التقى بها في كشك الجرائد، ولا قامتها المديدة، ولا حسن قوامها، ولا جسدها الغض، ولا ما يمكن أن يكون قد اشتهاه منها. لا نوع الثياب التي حضرت وهي ترتديها، ولا عريها، ولا الملامسات، ولا القبل، ولا أدنى ملاطفة. لا شيء عدا شراهته، واندفاعه، واستسلامها الكامل له، والرغبة وهي تحرص كليهما. رغبة من المفروض أن يلمسها لديها حتى لا يبدو ما هو بصدده وكأنه اغتصاب، ويظهر أن ما بينهما تمَّ بوفاق.

لم يخذله لاوعيه إذن، بل ساعده في جراءته، فبان أنه وإياه على اتفاق مسبق، وإن عبره خاطر أنبأه عن رغبته، وأسر إليه أنها لم تتجل له في الحلم إلاَّ لأنه يشتهي تدنيس الشابة. هكذا يتسنى له أن يخسف بها من السماء ليزرعها في الطين، فتغدو هي وجه الملاك كمثال عن البقية والجميع. كذلك يصير الأمر استعاضة عما لا يستطيعه في الواقع، وما

دام الحلم بديلا، عليه أن يغرف ما يسعه منه، ويستمتع بالنشوة كما لو أنها هبة سماوية.

ولفته عقب استيقاظه من نومه استفاقة زوجته. وما هي إلا لحظة حتى قامت تغادر فراشها. وأمامه أخذت تنزع عنها ثوب النوم المشبّع بعرقها لترتدي آخر. ونظر إلى حركتها باستهجان فاضح. ورغم أنها اعتادت فعل ذلك، لم يجد في تصرفها هذه المرّة ما يعجبه. ولا يدري كيف ذكّرته بالمرأة العجوز في لوحة جيورجيوني.

عندما انكشف جسدها المعجون من التجاعيد المتهالك والمرتخي لوى بعنقه يتجاوزه، ونظر باتجاه السقف مداريا شعورا بالخيبة، فلا شيء فيها عاد يشدّه. ولأنه خشي أن تُبادره بالحديث تظاهر بالنوم. ليس مستعدا بعدُ أن يتخلى عن حلمه أو أثره فيه. وحين غادرت غرفة نومهما، لم يفكر في الخروج من الفراش. وحاول استدعاء صور حلمه ليذوب فيها ثانية، وعلى أثرها اقتحمت مخيلته مشاهد عنيفة أخرى أكثر وقعا وشدّة. وتمثلت له الشابة في أوضاع فاضحة ومربكة، فانتفض جزعا غير قادرا على التحمل أكثر، خصوصا وأنه لا يملك لا الجهد ولا القناعة الأخلاقية التي تسمح له باستمرار ما وقع بينهما من قبل. وهو خلال نومه لم يكن محتاجا إلى تبرير ما حصل كونه غير مسؤول عنه، وأما الآن فقد أخذ ضميره يُعنّفه، وأمامه لم يجرؤ، فتقبل ذلك صاغرا. لا يجب أن يحدث هذا، ثم إنها في عمر أصغر حفيداته لو قُيِّد له وأنجب أولادا. عليه أن يخجل. مع ذلك، ولأنه استمر في الفراش، لم يستطع التنصل منها. وظل مطوّقا بها

وبالحلم وصوره، هذا قبل أن ينتفض. وقام متخليا عن فراشه فيما يُشبه الاضطرار، وحين فعل أحس كما لو أنه يُزجّ به عنوة في عالم آخر لا يريده، وغمره شعور بالاستهجان والإكراه.

لكن ماذا لو انتُهِكت أحلامه واكتُشِف سرّه؟ عليه أن يكون حريصا، ومغاليا في حرصه، حتى يستطيع أن يكتم ما حصل، ويحصل معه، ما دام يجد في دواخله ذلك التوق إلى أن يتكرر حلمه، ولا بد أنه سيحاول أن يستدعيه كلما وجد الفرصة، لما يظل يحتويه من متعة خفية.

ما إن غادر فراشه حتى تجاوز كل المشاعر التي بثها فيه الحلم، وقد خلّفه هناك وراءه على السرير مع الوسائد والأغطية، مع ذلك كان في حاجة إلى حمام ليمحي أثاره كاملة. وتكفّل الماء الساخن بإزالة كدره، ومنحه شعورا بالراحة تضاعف لما عرّج على المطبخ. وجلس إلى جانب زوجته في وفاق تُجسده العادة، وأخذ يشرب قهوته المخففة بالحليب كما اعتادها. وحين همّ يستعد للمغادرة خارجا سمع كارين تقول:

- إننا نحتاج بعض الضروريات للبيت.
- سأبتاع جرائد الصباح ثم أعود. لن أتأخر. يمكنك إخباري بما تحتاجينه الآن.

ما إن خطى بضع خطوات بعيدا عن العمارة التي يقطن بها حتى انتبه إلى أن هناك من يتبعه. هذه المرّة ودون كل المرات السابقة توقف مسمرا مكانه، والتفت ليتابع شابا ثلاثينيا يتقدم باتجاهه تذكر أنه لمحه

قبل اليوم في الكشك الذي يقتني منه جرائده، وفي أماكن أخرى. وفيما أخذ الآخر يعبر بجانب منه التقت أعينهم للحظة، وظهر له أنه أمام شخص يملك مزاجا حادا، ويبدو غاضبا قليلا. وراقبه يمشي قدما إلى الأمام حتى ضاع في الزحام، وجلي أنه ينسحب مغطيا على انكشافه.

بدل أن يستغل راسم الفرصة ويعود أدراجه إلى البيت، مراعيا بذلك سلامته، وجد نفسه يذرع الطريق التي لاحظ الشاب يمضي فيها. وظهر وكأنه هو من يلاحق الآخر هذه المرّة، ولأجل ذلك أهمل اقتناء جرائده كما اعتاد، وتجاوز تبضع الحاجيات التي أوصت بها زوجته. ورغم أن هذه الفكرة لم تعن على باله أوّل الأمر إلا أنه أخذ يمعن فيها غير مستوعب ما يرومه من كل ذلك. وكان كلما أوغل متقدما أكثر إلا وشعر باستحالة أن يقتفي أثره، مع ذلك بقي مصرا على السير في جزع. وكشخص تائه واصل خطوه متجاوزا ثلاثة مربعات سكنية أخرى، حتى إذا نال منه التعب وشعر بالإنهاك لجأ إلى مقهى قريبة لمحها في الزاوية، وجلس إلى طاولة تقترب من مدخلها المفتوح.

طلب من النادل فنجان قهوة، واستعجله في كوب ماء ما إن أتاه به حتى شربه كاملا على دفعتين. وحين حضرت القهوة كان قد أدركه هدوء نسبي. ولأجل مزاجه، ودون حسبان، أفرط في شربها متجاهلا أوامر طبيبه. ولم يدم انتشاؤه بها طويلا إذ انتبه إلى أحدهم يجلس إلى طاولة مجاورة ينظر إليه بشكل مريب. وجده كهلا في نحو الأربعين، يعتمر بِيريه وبحواجب ثخينة. ولما التقت نظراتهما تصرّف الرجل كما لو أنه ليس معنيا به البتة، ما جعل راسم يتساءل، هل يكون هذا شخصا آخر يراقبه؟

اشمأز من الوضع كله. لا بد أن تتوقف الملاحقة حالا. عليه أن يضع حدا لها، وإن اضطر إلى افتعال فضيحة وشجار يستعمل فيهما قبضتيه. وبان مصمما حتى إنه وقف وسار إليه لا يلوي على شيء. وها هو يشدّه من خناقه، ويهتف بحيث يسمعه الجميع:

- أغيثوني لأتخلص منه. إن هذا الرجل يتبعني ويترصدني ويريد بي السوء.

هرع إليهما كل من كان في المقهى، لكنهم بدل أن يقبضوا على الرجل في قسوة، عمدوا إلى تخليصه من براثنه، كما حاولوا تهدئة راسم ما استطاعوا متعهدين له إذا ما فك خناقه عنه أنهم سيتولون أمره من بعده. واستوعب أنهم يتصرفون معه بحذر، وكما لو أنهم إزاء شخص فاقد لعقله أو مريض نفسي أتى على فعل أخرق. وانتبه إلى أحدهم يسأله أين يقع بيته، ويخبره أنه مستعد لمرافقته إلى حيث يسكن.

بعد لحظات من التيه استعاد راسم وعيه. والظاهر أنه لا يزال يجلس مكانه إلى جانب فنجان قهوته. ونظر أمامه دهشا غير مصدق، فيما لفّه خجل كبير لم يكن لينتبه إليه أحد، ما دام ليس هناك من اطلع على ما وقع معه في الخيال.

ليكفّ عن تهيؤاته، وليبق ملتزما بكرسيه وطاولته، وإلا أوقع نفسه في حرج كبير.

عليه أيضا أن يتخلص مما يُتَخيل له، وإلا انقلب ما فيه إلى وسواس مرضي مزمن ومزعج. ثم لا يمكن لأحد أن يسلم من أعين

الناس من حوله. الجميع ينظرون إلى الجميع، ولا يعدو الأمر إلا أن يكون محض صدفة بريئة عليه ألا يشغل باله بها أكثر من اللزوم.

ما إن التزم بمكانه حتى عنّت على باله الشابة. وما لبث أن تساءل متفاجئا، ألا تصير بدورها مجرد وهم كما يحصل معه الآن حين يعتقد أنه ملاحق؟ وماذا لو أنه لم يسبق له الالتقاء بها أو الحديث إليها، ويكون كل ما يراه بخصوصها مجرد اختلاق؟ هل يعيش، وبسبب الخواء، أوهاما تقع داخل ذهنه المنهك؟ ثم إذا ما كان يراها في أحلامه، فما الذي يمنع من أن يحلم بها في يقظته؟.. وأخذ يتصبب عرقا جراء خوفه وريبته وتشككه، ومن فرط ما هو فيه شعر بأنه غير قادر على التنفس. ولم يعرف كيف يتصرف حتى يتخلص من الأفكار التي داهمته على حين غرة، ومن اختناقه.

التاع ووجم، وكأن ماسا كهربائيا مسّه. إنه غير واثق من شيء. وجاهد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فتسلل إليه بصيص أمل ضئيل، سعى لأن يتشبث به بكل ما أوتي من قوّة.

إن زوجته كارين نفسها شاهدة على هذه الحكاية في أحد فصولها، وهي لا بد تذكر زيارة الشابة له في شقتهما، كما لا يمكنها أن تُنكر أو تنسى.

يحرص على استعادة نفسه، متجاوزا إحساسه بالصدمة، لكنه في اللحظة التالية يعود فيتساءل مرّة أخرى، ماذا لو يكون قد اختلق هذا أيضا، مثوله أمام كارين، وحديثهما حول الشابة والزيارة والموعد؟ ولا ينقذه من ذهوله إلا تصميمه على الرجوع سريعا إلى البيت. سيسأل

زوجته متى وصل إليها عن الشابة، وستخبره لا محالة إذا ما قد حضرت فعلا إلى بيته؛ كما عليه وفي المقابل أن يتحضر لكل الاحتمالات السيئة الممكنة.

وقرر مغادرة المقهى، فقام خارجا. ولم يحتمل العودة ماشيا، فأوقف سيارة أجرة لتقله إلى البيت. وفي التاكسي راح يفكر ساعيا لدحض فكرة التوهم، ومؤكدا لنفسه أن الشابة لم تكن أبدا محض تخيلات لجأ إليها واخترعها ذهنه المتعب. وراهن على سدِّ كل ثغرة يمكنها أن تُقوِّض الواقع لصالح التوهم. ثم حدّث نفسه أن زيارتها له في شقته لا يمكنها إلا أن تكون حقيقية، وهو في هذا الصدد يملك شاهدا، وكارين لن تنفي، وستؤكد أنها التقت الشابة فعلا. ثم من ذا حين يقع في التوهم يعمد إلى وضع المتاريس في وجه رغبته؟ وأليس من الأصلح له لو أنه تخيلها تحضر من دون رفقة، فيتسنى له الفوز بها حينها كما حصل معه في حلمه هذا الصباح؟ ألا يبدو ذلك منطقيا، وأكثر تقبلا؟ مع ذلك لم يستطع منع عقله اليقظ من التدخل. إنه يروم إفساد الحفلة مهما كان الثمن، وإنه يود إغراقه في كل الظروف. وها هو يعلل له وضعه ويكشفه له كاملا، معرّيا ما لا يرغب في رؤيته. وفي الواقع فإن راسم ظل متوجسا من وقوف الشابة أمامه بمفردهما في الشقة، ثم ماذا كان يملك ليعرضه أمامها، ويقدمه لها؟ ناهيك عن تورطه في مشكلة أخلاقية ستنجر وراءها لا محالة متاعب غير هينة ما دام يصر أن يظهر بصورة الرجل الملتزم والذي لا يمكنه أن ينتهك مقدسا أو يتصرف تحت أي ظرف دون شهامة.

وأمام ما سيحصل تاليا، قدّر أن الأهم أن يحرص على ألا يبدو مرتعبا أمام زوجته. وإذا ما حدّثها بخصوص الشابة عليه أن يظهر منفتحا وأكثر حذرا، فيتحكم في انفعالاته وارتيابه قدر المستطاع. لا يمكنه أن يفسد عليها يومها. وهي إذا ما جزعت تلقفتها الهواجس والوساوس، وحينها لن ينجو أي منهما.

كان توتره النفسي قد خفّ نسبيا، وخفّت على أثره درجة ارتيابه بما قلّص رعبه. ولم يتصور والحالة هذه أن زوجته ستنفي زيارة الشابة له في شقته. وتلبسه يقين كامل، فراح يؤكد لنفسه أن هذا ما حصل، وأنه يُصدِّق نفسه. وعزم على التحكم في أعصابه، في انتظار ما ستعلنه كارين في هذا الصدد.

أدرك بنزوله من التاكسي أنه تأخر في العودة إلى البيت. ووَجَد أنه من الضروري أن يبتاع ما أوصته به زوجته من حاجيات، هذا حتى لا يُفاجئها بتقصيره. ولأجل ذلك لجأ إلى أقرب محل مفتوح صادفه أمامه، ومنه تبضع ما يلزمه، وقفل عائدا، لكنه وقبل أن يرقى الأدراج لمح ظرفا بريديا يطل عليه من علبة البريد المرصوصة إلى جانب أخواتها في المدخل، ولما استخرجه أدرك أنه بصدد رسالة له سبق وأرسلها إلى صديقه جاكوب، وتساءل عن الخطأ الذي يمكن أن يكون قد اقترفه، وبسببه عادت رسالته إليه؟

قلّب الظرف على وجهيه، وتفحصه بعناية. على الأقل لم يخطئ في كتابة عنوان المرسل إليه، فهو لا يزال نفسه منذ دهر، وإنه لهذا السبب يحفظه عن ظهر قلب.

دخل شقته مشتتا، وبدل السؤال الذي كان راغبا في طرحه على كارين راح يستعرض أمامها قصة الظرف الذي وجده في صندوق البريد. لقد عادت إليه واحدة من رسائله إلى جاكوب. وأمامها ظهر كمن لا يفهم، وراح يحكي عن الموضوع وكأنه بصدد رواية مأساة تراجيدية.

- لكن لماذا عادت الرسالة؟ أي مشكل يكون قد حصل؟
- ربما غيّر عنوانه.
- المنزل الذي لم يغادره منذ أكثر من أربعين سنة!
- يمكن..

بعد تردد، واصلت تقول، وراحت تفعل ذلك بجهد وكأنها تخشى عليه:

- أو لعله أصابه مكروه ما!

قفز شبح الموت أمامه. وإن ذلك ما يخشاه. أن يكون صديقه قد توفي على غفلة منه. وأمام فداحة الخسران الذي تجلى أمامه بدا مفجوعا ومحبطا ومهزوما. وأخذ يجتاحه تيه كبير، وهتف مختنقا يلوذ بما لاح له من أمل بسيط:

- أو ربما هاجر إلى إسرائيل!
- لكنه ضد الهجرة كما ظللت تخبرني دوما!
- لست هنا لألومه. لا أحد يعرف ظروفه. أتوقع أنه وجد نفسه مضطرا بعد هجرة أولاده وأمهم. لقد بقي رافضا ذلك لسنوات، لكن فرنسا أيضا لم تأبه له، ولن تدخر له ميتة محترمة.

انصرفت زوجته، وغابت عنه للحظات، ثم عادت لتقترب منه بتمهل شديد. ولمح أنها تحمل في يدها شيئا لم يتبينه أول وهلة، ولم يتعرف عليه إلا حين وضعته أمامه على الطاولة.

يا إلهي إنها رسائل. رسائله التي ظل يبعث بها إلى صديقه جاكوب. لقد كانت جميعها تعود!

وظهر أنه لا يفهم. وسأل كمن يبحث عن جواب شاف:

- ما هذا؟
- إنها رسائلك، وما فتئت تعود جميعها. حصل ذلك أوّل مرّة لما دخلت المستشفى، ولم أشأ أن أخبرك بأمرها حينها حتى لا أضاعف من محنتك ومرضك.

وبدت الأظرفة مفتوحة، فهل قرأتها كارين؟ وهل صارت تعرف بتفاصيل خطاباته إلى صديقه جاكوب؟

شعر بأنه خُدِع. وأخذت الهوّة تتسع لتبتلعه كاملا، ولم يعرف كيف يجابهها، فبقي مسمرا بشكل بغيض إلى وحدته، وتوقع أنه سينتهي كواحد من الكلاب المنبوذة.

لا بد أن هناك من يشحن نفسه ضده، ويعمل على ترويعه!.. لا يصدق ما يحصل معه، فكأنه زُرِعَ وسط فخاخ ملعونة وكريهة! وتملكه إحساس واخز بالمهانة والرعب، داهمه على أثره وهن شديد لم يملك حياله شيئا.

كذلك في تلك الليلة جافاه النوم، فبقي يقظا ومهجوسا. وغادر بعد منتصف الليل فراشه، ولجأ إلى محترفه حتى لا يزعج زوجته النائمة. وهناك جلس، وبدأ يكتب..

إلى جاكوب ستيرن
الجزائر - الأبيار

30، مارس، 1975

"عزيزي جاكوب..

أكتب إليك هذه المرّة مملوءا بالخوف، وأفكر أننا قد لا نلتقي ثانية، وأنه لا يمكننا أن نتراسل بعد اليوم. وأشعر بدنو الأجل والنهاية لما أفهم أنك غالبا لن تقرأ ما أخطه لك الآن.

أكتب إليك ليس بدافع العادة، ولا كما كنت أفعل دوما من منطلق حاجتي إليك، ما دام أن شعوري الآن يتجاوز رغبتي القديمة، في أن أفرغ ها هنا ومن خلال الكتابة ما يسعه قلبي المشحون حين يجد من ينصت إليه، ولا لأني لم أعد أحتمل التفكير، وأرغب في تطويق الأرق لأجل أن أستدعي النوم، فأنا لا أخطط له، وستظل أمنية لو أستطيع أن أغمض عيني الليلة وأنام.

أشعر بالوهن وبضعف ماحق فأكتب إليك، وأدرك بما لا يشوبه شك بأني غدوت طاعنا في السن، وأني بعد اليوم سأصير طاعنا إلى درجة لا يمكن معالجتها، طاعنا بشكل ميؤوس منه. وليست الوحدة هي التي تقسو علي، بل كتفك حين لا أجدها، وقد اعتدت أن أستند

عليها بما يبقيني متوازنا، وما أخشاه أن أسقط بعدك.

أكتب إليك وليس ببالي غير أسئلة تقض مضجعي، أسئلة ثقيلة تطوِّقني، وتفتك بي، ولا تريد أن تنتهي.

لماذا هكذا تُهمل رسائلي إليك، ولا تتلقاها؟ أين أنت؟ ومتى رحلت؟ وكيف سمحت لنفسك بالاختفاء بعيدا عني، ودون إخطار؟ ثم لماذا تصرون جميعكم على مغادرة هذه الحياة التي عرفتكم فيها، هذه الحياة نفسها التي مرّت قاحلة جافة إلا منكم، وما كنت لأتحملها إلا بكم؟

أي لعنة تلك التي أصابتني أو أصابتكم، وقد رحتم كلكم تتحوّلون إلى مجرد أوهام في حياتي العتيقة؟ أم أنكم تُصّرون وأنتم تفعلون أن تتركوني إلى هذه الوحدة الكريهة البغيضة؟ ودونكم هذا العالم سيتبدل إلى صحراء جرداء قاحلة، ومن دون ماء!

بربكم لماذا كل هذا الإمعان في القسوة؟ ولماذا لا تعودون فجأة كما غبتم، لتعلنوا أنها مجرد دعابة سمجة لم أحبها ولن أحبها، تمتحنونني بها، وتختبرون من خلالها مدى قلقي عليكم؟

أجاهد كي لا أفقد ذاكرتي، ووحدهم فاقدو الذاكرة من ينسون. ولأني ضد النسيان أناور بما أستطيعه وأقدر عليه.

أبحث عنكَ في ألبوم الصور. أعثر على صورة بالأبيض والأسود تجمعنا معا، أنا وأنت وكارين، التقطتْ لنا ذات ربيع، ويفوتني تاريخها، فأتساءل هل حصل ذلك نهاية الأربعينات، أم بداية الخمسينات؟ وما يشدني أكثر إلى الصورة أننا كنا فيها أكثر شبابا ونقاءً وامتلاءً بالحياة.

أتأملها بإمعان واهتمام. أنت بقميص مزخرف متعدد الألوان مفتوح على مستوى الصدر، تشع منك ابتسامة كبيرة عذبة وصافية، وكارين بفستان فاتح بياقة تستسلم للضحك، فتراه يغرد كلحن زكي من كل ملامحها، وأنا كعادتي ببدلة غامقة لكن دون ربطة عنق، أحاول أن أظهر جادا ووقورا ما أمكن، وإن تفلت مني ابتسامة طرية يكاد يحجبها شاربي الكث. نجلس ثلاثتنا في إحدى مقاهي باريس، وعلى ناصية طريق مفتوحة على مارة أنتبه لهم للتوِّ فأراهم يشاركوننا الحضور بملامحهم الأليفة والهادئة. وبينما نحن ننظر أمامنا ونستقبل الشمس على وجوهنا، تمتد ذراع كل منا على كتف الآخر، محبة لا تنتهي..

وأما في هذه اللحظة، فإنك تصر وتنسحب كما كل الأشياء الجميلة التي اعتدتها في حياتي، دون أن تسر إلي وتخبرني إلى أين ترحل، وتسلمني إلى جزعي دون أن تكشف كيف!

كان عليك أن ترفض؛ أم أن هناك من يتحكم بمصائرنا، يرسمها لنا، ويقودنا إلى حيث لا نعلم، ولا نستطيع إزاءه إلا الإذعان؟

لا شيء متروك للصدفة، وكم كان الفنان غُويا ملهما وفريدا وهو يُصوّر مأساتنا جميعا نحن العجزة، ويُخلدها في لوحته زحل يلتهم ابنه. فلسنا في النهاية إلا وليمة لهذا القدر في تفانيه. قدر يظل يهادننا وينافقنا، وفي غفلة منا يضرب من غير شفقة ولا رحمة. ولأنني مجرد ذرة هينة وصغيرة تطحنني تروسه الصدئة والقاسية بكل إمعان، أكاد أذعن مثلك وأستسلم لتطوقني رتابة هذا الليل وصمته، لولا جرس الباب الذي يقاطعني الآن فجأة.

من يكون؟!

مضطر إلى الانسحاب. هكذا انفلتُ من رعشة ودوار الموت، لكن دون أن أعرف إلى أي حد. وأراني أذهب لأفتح الباب، وأنظر من الطارق، وإن كنت لا أرحب بزوار الليل أبدا...!"

بتاريخ 30 مارس 1975 ميلادية، نشرت الجرائد المسائية خبرا يفيد بأنه عُثر على محمد راسم مقتولا في شقته رفقة زوجته، فيما رجحت تحقيقات الشرطة الأولية فرضية السرقة كدافع.

لاحقا، ولأنه لم يتم التعرف على الجاني، أُغلقت القضية، وقُيِّدت ضد مجهول.

أبكر قليلًا من الموت

محمد جعفر

• كاتب من الجزائر

صدر له:

« هل عشنا كل هذا العمر لأجل هذه اللحظة المفرغة من المعنى؟ وما جدوى كل الذي كان إذن، وما جدوى أي شيء؟ هكذا نغدو فارغين ومحبطين، وبلا أثقال غير هموم صدّقناها، وتمسكنا بها بيأس شديد لا نريد أن نفلتها.!»

هكذا يتأمل بطل هذه الرواية، بعين الفنان المتوهجة بالألوان الزاهية بالحياة رحلة عمره، من خلال رسائل يتبادلها مع أصدقاء له، فنستمتع بسرد التفاصيل والأحداث ونتوقف عند عالم اختفى خلف ظلال التاريخ بكل توتراته ومنعطفاته اجتماعيا، سياسيا، تاريخيا، ووجوديا

رواية عميقة، شجاعة، تتأمل في الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياة الفنان محمد راسم إلى ما قبل ساعات من مقتله المريب

قليلة تلك الروايات المعرفية ذات الوهج الفلسفي التي يمكنها أن تقبض على القارئ على الرغم من وقوفها عند الحافات المطلة على هاوية الموت، لكنها على الرغم من التفاتات الوداع فهي تحتفي بالحياة والجمال والرغبات، وتقاسم الناس مصائرهم الغامضة

الروائي محمد جعفر في هذه الرواية، لا يعتمد على حبكة سردية وحكاية مثيرة تستجدي انتباه المتلقي بقدر ما يدعنا نشارك البطل تأملاته وهواجسه وأوهامه، أرواحه وأشباحه، وحوارات عزلته الداخلية، لنعيد طرح أسئلة الرواية على أنفسنا وهو بذلك يؤكد حضوره اللافت والمفارق في المشهد الروائي الجزائري والعربي.

الروائي برهان شاوي

9786140245303

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.nwf.com - www.neelwafurat.com